خالد محمد خالد

معجزة الإسلام

عمر بن عبد العزيز

الطبعة الخامسة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

معجزة الإسلام:

عمر بن عبد العزيز

خالد محمد خالد

معجزة الإسلام

عمر بن عبد العزيز

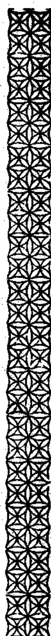
الطبعة الخامسة



دار المعارف

مراجع تاريخية

(١) سيرة « عمر بن عبد العزيز »	ابن عبد الحكم
(٢) حِلية الأوليـــاء	أبو نعيم الأصبهانى
(٣) تاريخ الطبرى ج ٦	ابن جرير الطبرى
(٤) البداية والنهاية ج ٩	ابن كثير
(٥) الأخبار الطِّوال	أبو حنيفة الدّينورى
(٦) الأيام الأخيرة للدولة الأموية	عمر أبو النصر
(٧) الأغانى	أبو الفرج الأصفهانى
(٨) عيون الأخبار	ابن قُتَيْبة
(٩) ديوان جرير	



الإهداء

يا مَنْ صنَعك الإسلام على عَيْنِه

فكنتَ معجزته الباهرة التى

لا يَنْصَلُ – على الدهر – بَهاؤُها

إليك أهدى – فى خشوع وحياء – هذه الصفحات . .

فهل تتقبلُها ، يا أمير المؤمنين . . ؟ ؟

في هذا الكتاب

صفحة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

معذرةً إلى أمير المؤمنين . . من كاتب يُجاوز قدره بالحديث عنه ، والتأريخ له – كما جاوز قدره من قبل فى محاولات مُماثلة . .

ومعـذرة إلى « أمير المؤمنين » . . من كاتب لم يستطع أن يكبح جماح رغبته هذه ، وهو يعلم علم اليقين قدْر مَقْتِ أمير المؤمنين للحديث عنه وإطراء شمائله ومزاياه . . !

وليكن شفيعى أن – أمير المؤمنين – لم يكن مِلك نفسه . . إنما هو ابن الإسلام البار ، ومِلْكيته الثمينة . . ! ! !

ومن ثمَّ ، فالكتابة عنه ليست حقًّا له . بل هى حق للإسلام الذى كان – ابن عبدالعزيز – ثمرته ومعجزته . .

أفيأذن إذن أن أؤدى للإسلام حقًّا أُطيقه ، وإن قصَّرتُ من قبل ، ومن بعد ، فى حُقوق كِثار . . ؟ !

* * *

عبد العزيز» ومن سيرته أكثر الحقائق الإنسانية إثارة للعجب ، والبهر ، والإجلال ، والتى جعلت منه أسطورة ، أصدق من الحقيقة . . وحقيقة ، أعجب من الأساطير . . ! !

فهو لم يشغل الناس والتاريخ بكثرة عبادته ، ووفرة عدله ورحمته ، وسمو حكمه وخلافته ، فحسب . . ! !

بل إنه – قبل ذلك كله – شغل الناس والتاريخ وبهَرهما بذلك الانقلاب الروحى المذهل وبالظروف التى أحدثته وواكبَته . .

فقد يكشف منصب الحكم والخلافة فى شاغله عن عبقرية فى التنظيم . والإدارة . والسياسة . .

أما أن يكون هذا المنصب بكل إغرائه وفتونه وزهوه وسلطانه سبباً مباشراً لتفجير عبقرية الروح والقداسة ، فذلك مايصعب تصوره ، فضلاً عن تفسيره . . ! !

وهذا هو الذى حدث بالنسبة لـ« عمر بن عبدالعزيز» . .

فعلى الرغم من أنه كان قبل استخلافه ، وطوال سِنِى عمره طاهراً ، صالحاً ، فاضلاً . فإن ذلك كله لا يبدو شيئاً مذكوراً أمام حياته ومسلكه بعد القفزة المجيدة والمباغتة التى حدث خلالها أعظم وأندر انقلاب روحى شهدناه فى كل بنى الإنسان . . ! !

ويزيد الأمر عجباً ، أن هذا الانقلاب الباهر ، تمَّ بتكامُله المطلق فى بضع دقائق من الزمان . . وأن هذا الانقلاب الروحى المعجز ، لم يجىء ثمرة طارئ يُغرى بالزهد ، ويدفع للعزلة والإخبات . . بل هو على النقيض من ذلك ، ثمرة مفاجأة تُفجِّر فى النفس مهما يكن ورعها وتقاها . كلَّ رغبات الحياة المتأنقة . . ومباهجها المتألقة . . ! !

أجل . . فنى الدقائق ، وإن شئتم فنى اللحظات التى هُتف فيها باسمه خليفة وحاكماً لأعظم امبراطوريات عصره وعالَمه . تمَّ هذا الانقلاب الذى يتحدَّى كل وصف وكل تصوير . . . ! !

والرجل الذى كان قبل دقائق استخلافه . يُضمِّخ ثيابه بأغلى العطور ، ويسكن أعلى القصور ، ويلبس أبهى الحلل ، ويأكل أطيب الطعام ، ويركب الصافناتِ الجِياد ، ويبلغ دخله السنوى أربعين ألف دينار . .

هذا الرجل ذاتُه ، يصير بعد دقائق . . لا أيام ولا ساعات ، إنساناً آخر ، عِطره ، عَرَقُه . . وجياده ، قدماه . . وملبسه من أخشن الثياب . . ومطعمه من أجشب الطعام . . ودخله لاشىء . . ؛

فقد حمل كل ثروته إلى بيت المال . . وقصوره الفارهة لا قصور . . ؛ فقد تحول عنها إلى دار متواضعة من الطين . .

وعرشُه – يالَجلال عرشه – حصير قديم يجلس عليه فوق التراب . . . ! ! !

ويزيد الأمر تعقيداً ، كما يزيده روعة وجلالاً أن بطل هذا الانقلاب الروحى المثير ، لم يكن من أوساط الناس . . بل هو ربيب الملك ، والقصور ، والأمجاد ، والنعيم . .

كذلك لم يكن ساعة هذه الوثبة الروحية الهائلة شيخاً هرماً ، فى سن الستين أو السبعين . بل كان فى رائعة شبابه ورجولته . فى سن الخامسة والثلاثين . . . ! ! !

* * *

تحت أى تأثير لا يُقاوَم سحره ، ولا يُردّ قدره ، وقع هذا الانقلاب داخل هذه الظروف . . ؟ ؟

لاشيء أمامنا سوى « مسئولية الحكم » نقلته فى لحظات إلى قديس لانظير له بين جميع القديسين . . ! !

ذلك أنه لم يَصِر « قديس صومعـة » بل قديس صولجان وسلطان . . ودولة من أعظم دول الأرض والزمان . .

وذلك – لَعمرُ الحق – مايكاد يذهب بالألباب . . ! !

لقد صار منذ استُخلِف يَتلَوّى تحت وقع مسئولياته ، ويصرخ من أعماقه : [من ينقذنى يوم القيامة من حق الفقير الجائع . . والمريض الضائع . . والمظلوم المقهور . . واليتيم . . والأرملة . . والأسير ..] ..؟؟ ! !

* * *

إيه ، يابن عبد العزيز ! ! تقدَّم ، ولا تَخف . . . .

تقدم . . لترى الدنيا كيف أنجب الإسلام . . وكيف ربَّى « محمد » وعلّم . . ! !

تقدم ياحفيد الخلافة والملك ، ورضيع المباهج والنعيم . . ! !

تقدم . . ياريَّان الشباب ، ويايناعم الإهاب ، ويافوَّاح العطور والعبير . . ! !

تقدم « يا أمير المؤمنين » وأرِنا اليوم مُرَقَّعَاتِك ، وأسمالَك . . ! !

أرِنا القميص الذى كنت تغسله ، ثم تنتظره فى ركن دارك حتى يجفّ ؛ لأنك لا تملك سواه . . ! !

أَرِنا وجهك الشاحب ، وجسدك الناحل من فرط ماتبذل من جهد ، ومن أثر الخبز المتبَّل بالملح ، والمبلَّل بالزيت . . ! !

أرنا « الحصـير » الذى اتخذت منه عرشاً يا خليفـة المسلمين ، ويا أمير المؤمنين . . ! !

أرنا دارك التى شدَّت إليها الرحالَ من بلاد بعيدة ، سيدةٌ جاءت تطلب المزيد من عطائها فلم تلبث حين رأتها أن قالت فى مرارة :

« أتُرانى جئت أعمر بيتى ، من هذا البيت الخرِب . . ؟ !

ألا حيًّا الله « فاطمة » زوجتك ، فكم كانت صادقة حين أجابتها :

[إنما خرب هذا البيت ، عمارةُ بيوت أمثالك] . . ! !

تقدم . . يا أمير المؤمنين ! !

فما نعرف يقيناً أشبه بالأسطورة . . ولا أسطورة أصدق من اليقين ، منك أنت ، ومن نبئك العظيم . . ! !

* * *

ومعذرة – مرة أخرى – فقد نسيتُ أنك تكره الإطراء والثناء ولكَم كنت أود أن أعِدَك ألا أعود . .

ولكنى غير قادر . . والدنيا المبهورة بعظمتك تقف هى الأخرى ، عاجزة وغير قادرة . .

فمن ذا الذى يستطيع الصمت أمام الذى أتيته من مُعجزات . .

مَن . . . ؟ ؟

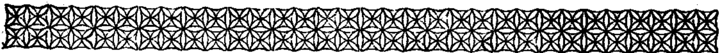
. . ياأمير المؤمنين ؟ ؟ ! !

« خالد »

الفصل الأول

الطفولة المُرهِقة

[. . إنك إذن لَسعيد] ! !



كان ذلك فى طفولته الغضّة الناضرة .

وكان أبوه « عبدالعزيز بن مروان » يحكم مصر والياً عليها لأخيه الخليفة الأموى « عبدالملك بن مروان » حيث لبث « عبدالعزيز » فى ولايته هذه عشرين عاماً .

وغادرت « أم عاصم » المدينة المنورة حيث كانت تقيم ، لاحقةً بزوجها « عبد العزيز » فى مصر . مصطحبة معها ولدهما الحبيب « عمر » . . .

وفى « حلوان » التى اكتشف عبدالعزيز جمال مُناخها فاتخذها مُنتجعاً ومُستراحاً ، راح الطفل المتفتح يجرى فى مرابعها ، ويعبّ من هوائها .

وذات يوم ، دخل حظيرة الخيل ، فركضه جواد ، فشَجَّه وأدماه وحمل الطفل الجريح إلى داره ، وما كادت أمه تبصره حتى أخذها الروْع ، وفجعها المشهد .

واستُدعى أبوه ، فجاء على عجَل ، ورأى الدم يغطى وجه ولده ، والشجَّة الفاغرة تنزّ . .

وقبل أن يغشاه الأسى ، طوَّفت بخاطره ذكرى ألقت على محياه تهلُّلا وعلى ثغره ابتساماً . . .

ولما فرغ من تضميد جرح طفله الحبيب ، رَبَّتَ على كتف زوجته والبسمة تزداد على شفتيه اتساعاً وتألقاً ، وقال :

« أبشرى ، ياأم عاصم » !

ثم بسط يمناه يداعب بها رأس ولده ، وعيناه تُحدّقان فى وجهه الشاحب الوديع ، وراح يقول له :

« إن تكن أشَجَّ بنى أمية ، إنك إذن لسعيد » . . ! !

فماذا كانت الذكرى التى أثارها هذا الحادث ؟

وما شأن النبوءة التى أومأت إليها كلمات عبدالعزيز . . ؟ ؟

* * *

لنعد إلى الوراء كى نشهد النبأ من أوله . . فهناك فى تلك الليلة الشاتية ، حيث المدينة ساكنة ساجية ، قد أوَى الناس فيها إلى دورهم ومضاجعهم يلتمسون الدفء من ذلك الصقيع الراعد ، إلا رجلا واحداً أفزعته مسئولياته – وقد كانت دائماً تفزعه – فنَضا عنه غطاءه ، وخرج إلى طرقات المدينة التى خلت من كل حىّ ، ولم يبق بها سوى كتل الظلام ، وعُواء الريح . .

خرج الرجل وحده يتعسَّس ، فلعلَّ هناك جائعاً ، أو مريضاً ، أو مقهوراً ، أو ابن سبيل . . .

لعل هناك شأناً من شئون الناس قد غاب عنه ، والله سائله عنه ومحاسبه عليه . . فالرجل خليفة للمسلمين وأمير للمؤمنين .

أجل . . إنه هو – عمر بن الخطاب – رضى الله عنه وأرضاه .

وطال تعسُّسه وتطوافه. حتى أدركه التعب ووخزه الصقيع . فلاذ بجدار دار صغيرة فقيرة ، وجلس يستريح قليلا ليستأنف خطوه فيما بعد إلى المسجد ، فقد أوشك الفجر أن يجىء . .

وإذ هو فى مُتَّكَئِه ، سمع حواراً داخل الدار .

كان الحوار يجرى بين أم وابنتها حول ذلك القَدْر الضَّحْل من اللبن الذى جاد به ضِرع شاتِهما فى ذلك الهَزِيع ، وكانت الأم تدعو ابنتها كى تخلط اللبن بالماء ؛ حتى يزداد ويفى ثمنه بحاجات يومهما الوافد . .

سمع أمير المؤمنين حوارهما :

الأم تقول لابنتها :

« يا بنية ، امْذُقِى اللبن بالماء .

والبنت تجيب أمها :

« كيف أَمذُق ، وقد نهى أمير المؤمنين عن المذْق ؟ ؟ وتعود الأم قائلة :

« إن الناس يمذُقون ، فامذُقى ، فما يدرى أمير المؤمنين بنا إن مذَقْنا ، ولا يرانا . . » .

وتجيبها الفتاة :

« ياأماه ، إن كان أمير المؤمنين لايرانا ، فرَبُّ أمير المؤمنين يرانا ! ! ! »

واغرورقت عينا أمير المؤمنين بدموعِ الغبطة والفرح ، وسارع إلى المسجد ، فصلى الفجر بأصحابه ، ثم عاد مسرعاً إلى داره ، ودعا ابنه « عاصماً » وأمره أن يأتيه بحقيقة أهل تلك الدار .

وعاد « عاصم » إلى أبيه بمعلومات وافية عن الأم وابنتها ، وقص

أمير المؤمنين على ولده-ماسمعه من حوار ، ثم قال له وقد كان مزمعاً على زواج :

« اذهب يابنى فتزوجها ، فما أراها إلا مباركة ولعلها تلد رجلا يسود العرب » ! !

وتزوج – عاصم – تلك الفتاة الفقيرة الشريفة الورعة وأنجبت له فتاة ، أسموها « ليلى » وكَنَّوْها « أم عاصم » .

ودرجت « أم عاصم » هذه فى شبابها التقى النقى ، حتى تزوجها «عبدالعزيز ابن مروان » فولدت له « عمر بن عبدالعزيز » .

تلك إذن ذرية بعضها من بعض . . ولقد صدقت نبوءة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى الفتاة المباركة .

بيد أن هذا الجزء من النبوءة ، لم يكن هو الذى دار بخَلَد « عبد العزيز ابن مروان » حين قال لطفله الجريح :

« إن تكن أشجَّ بنى أمية ، إنك إذن لسعيد »

فللنبوءة بقية أخرى ، هى التى استجاشت الذكرى فى وعى عبدالعزيز .

ذلك أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . . رأى ذات ليلة رؤيا نهض من نومه على أثرها يعجب ويقول :

« مَن هذا الأشجُّ من بنى أمية ، ومن وَلد عمر يسمى عمر ، يسير بسيرة عمر . . ويملأ الأرض عدلا » . . ؟ ؟

رأى « عمر » هذه الرؤيا . واستشرف ذلك الغيب قبل أن يولد حفيده « عمر بن عبد العزيز » بقُرابة أربعين عاماً ! !

وانتقل ابن الخطاب رضى الله عنه إلى الرفيق الأعلى ، وظلت نبوءته هذه تُدَوِّى بين أهله وذويه الذين راحوا يتلمسون تلك العلاَمة فى وجوه أبنائهم .

وحين وُلد لعبد الله بن عمر ابنه « بلال » وأصيب فى طفولته بشجَّة فى وجهه ، حسبوه المَبَشَّر الموعود ، لكن الأقدار تخطته حتى جاء اليوم الذى شُجَّ فيه وجه ابن عبد العزيز. فتذكر أبوه النبوءة القديمة ، وقال قولته المفعمة بالرجاء والأمل . .

« إن تكن أشج بنى أمية ، إنك إذن لَسعيد » ! !

* * *

هذه إحدى ظواهر الإرهاص فى طفولة – بطلنا – وليست كل الظواهر .

فلسوف نرى إرهاصات طفولته تُغطى ببشائرها كل مجال ، وتتكامَل بالقدر الذى سيكون عليه تكامُل الدور العظيم لحياة الرجل فى – عمر بن عبدالعزيز – وحياة الخليفة فيه . .

وهذا الإرهاص لا يتمثل فى تلك العلامة الجسمانية التى أحدثتها شجَّة الوجه فحسب . .

بل يتمثل فى ذلك الانتماء المزدوج للنقيضين الكبيرين :

عمر بن الخطاب وسلالته التقية الورعة .

والأمويين ، وسلالتهم المتقحمة المستهترة .

وهنا يجاوز الإرهاص شخص – عمر بن عبدالعزيز – إلى دائرة أوسع ، ومغزًى أبعد . .

فكأنَّ القدَر ، وقد أمهل بنى أمية حين اغتصبوا الخلافة . وأحالوها إلى ملك عَضُوض ، وإلى مزرعة أموية ، قد قرر أن يجيئهم برجل منهم ، يُذيع على الملأ وثائق إدانتهم ، ويرد إلى دين الله حقيقته المضيئة ، وإلى دنيا الناس

عافيتها الغائبة ، وإلى منصب الخلافة كرامته وتُقاه . . ! !

ثم يكون للدنيا بأسرها آية على مايستطيع الإسلام العظيم أن يصنعه حين تتقمَّص رُوحه الغلاّبة المشرقة رجلا من الناس ، فتحيله إلى نور إلهى معجز ؛ حتى حين يجيء هذا الرجل من أصلاب أولئك الذين ملأ أكثرهم الأرض فساداً وبغياً ! !

* * *

على أن هذا النوع من الإرهاص كان يدور خارج شخصية الطفل الموعود . .

هو إرهاص يديره القدر بنفسه ولحسابه ، دون أن يكون للطفل دخل فيه ، أو عِلم به . .

فلننظر الآن نوعاً آخر من ذلك الإرهاص ، كانت شخصية الطفل مادَّته وأداتَه . . وكان مظهراً لجهده الذاتى فى اكتشاف نفسه ، وبناء شخصية ، حيث نبصر رغبات الطفل ، تشير إلى مستقبل الرجل . . وحيث نلمح فى اتجاهه النفسى والعقلى إبان طفولته من النضج والاستواء والرشد مايُرهص بِغَده ويبشر بمستقبله .

ولقد تحدث هو فيما بعد عن طفولته تلك فقال :

« لقد رأيتُنى بالمدينة ، غلاماً مع الغلمان ثم تاقت نفسى للعلم ، فأصبت منه حاجتى » ! !

ومن هنا تبدأ إطْلالَتُنا الواسعة على الإرهاص الذاتى لهذه الطفولة المباركة .

فلقد رغب الطفل إلى أبيه أن يغادر مصر إلى المدينة ليدرس بها ويتفقَّه .

والمدينة يومئذ منارة للعلم والصلاح ، تمتلىء بالعلماء والفقهاء ، والعبَّاد والصالحين .

كما أنها مجتمع يموج بالنبوغ الإنسانى فى فنون الشعر ، والعزف والغناء .

ويستجيب – عبدالعزيز بن مروان – الذى كان من خيار بنى أمية وبنى مروان ، وأكثرهم قرباً من الهدى والتقى والصلاح . . يستجيب لرغبة ولده ، ويرسله إلى المدينة المنورة ، ويعهد به إلى واحد من كبار معلمى المدينة وفقهائها وصالحيها . . وهو « صالح بن كيسان » .

* * *

إن طفلا كصاحبنا ، نشأ فى قصور المُلك ، والنعيم . . يحمل لقب « سمو الأمير » . . وبين يديه ، بل ملء يديه من مناعم الحياة ومباهج الأيام أكثر مما يشاء . ما كان يُتوقع منه – وفى طفولته على الأقل – إلا أن تحمله أشواق الطفولة ورغباتها إلى دنيا اللهو والمرح والانطلاق .

فما بالُه ينأَى عن ذلك كله ، وينزع بكل فؤاده وهواه إلى آفاق الرجال ، بل حكماء الرجال . . ؟ !

ثم مابال طفولته لا تُرهِص ببعض خصائص اكتماله المقبل فحسب ، بل تُرهص بكل هذه الخصائص على نحو عجيب . . ؟ !

أجل . . إن كل تألُّقات سلوكه الذى سنراه عند ما يصير خليفة للمسلمين ، تبدو بشائرها فى حياة الطفل والغُلام مجتمعة متكاملة .

فخوفه الشديد من الله . .

وإقباله النهم على العبادة والعلم . .

وتقديسه المطلق للحق ، ودحْضُه القوى للباطل . .

وولَعُه بمعالى الأمور . .

كل تلك الخصائص والسجايا التى ستشكل سلوكه وحياته فى أثناء خلافته ، نرى بشائرها كلها فى نشأته الباكرة تُزاول تدريبها الذكى فى توفيق عظيم .

فهو كما رأينا من قبل يرغب إلى أبيه كى يرسله إلى المدينة ليتزود من فقهها وعلمها قائلاً لَه :

« دعنى أذهب إلى المدينة ، فأجلس إلى فقهائها . وأتأدب بآدابهم »

ثم لايكاد ينزل بها حتى يلوذ بالشيوخ والعلماءوالفقهاء ،متجنباً أترابه ولِدَاته . .

ويعكف على حفظ القرآن حتى يُتم حفظه فى زمن جدّ قصير ووجيز . .

ويقبل على العربية ، وآدابها ، وشعرها ، فيستوعب من ذلك كله محصولا وفيراً . .

وقد يبدو هذا النبوغ المبكر أمراً مألوفاً إذا هو قيس بالمستويات المتفوقة للطفولة الناجبة الذكية .

لكن هل يبلغ مثل ذلك النبوغ من ضمير طفل مايملؤه خشيةً لله ، وما يجعله يبكي وينتحب من مخافة الله . . ؟ ؟ !

لقد كان – عمر بن عبد العزيز – ذلك الطفل الورِع البكّاء .

فاجأته أمه ذات يوم ، وهو فى حجرته وحده يبكى وينتحب ، فألقت نفسها عليه تسائله مادهاه ؟ فكان جوابه :

« لا شيء يا أماه ، إنما ذكرت الموت » . . ! ! !

وقد تراودنا الرغبة فى تفسير واقعة كهذه ، بأنها حالة عارضة . ربما أثارها مِزاج نفسى طارئ . . أو لعلَّه كطفل مُرهف الحسّ جزع من صورة الموت الذى سيسلبه مسرَّات هذه الحياة . .

بيد أن للصورة أبعاداً أخرى .

فمعلمه « صالح بن كيسان » فقيه المدينة العظيم ، يعطينا الصورة كاملة وهو يتحدث عن طفولة ابن عبد العزيز فيقول :

« ما خَبَرْتُ أحداً ، الله أعظم فى صدره من هذا الغلام » ! !

وحين يتحدث عالم فى منزلة « ابن كيسان » أنه لم ير أحداً [اللهُ أعظم فى صدره ، من هذا الغلام] ، فإننا نجد أنفسنا أمام نموذج إنسانى نادر المثال . . ! !

ذلك أن هذا القدر من الورع وخشية الله وإجلاله . إنما يُواتى الأفذاذ من الصالحين بعد أن يكبروا ويتقدم بهم العمر . . أمّا وهم غلمان صغار فهيهات . . إلا أن يكون واحداً من أولئك الذين يَصْطَنِعهم الله لنفسه ، ويَصْنَعُهم على عينه . . ! !

* * *

وتَبهرنا طفولة « ابن عبد العزيز » بطريقتها فى اختيار القدوة والمثَل الأعلى . .

فقد رأينا الغلام يجنح بكل ثقله الوجدانى والعقلى إلى جانب الشيوخ بما معهم من دين ، وحكمة ، وفقه ، وخُلق .

ثم يذهب فى تمييز مثله الأعلى واختياره وتحديده مذهباً يبهر الألباب .

فالغلام الصغير ، لايستمد مثله الأعلى من بيئته التى تعجّ بالأمراء

والملوك ، ولا من دنياه الحافلة بالمباهج والزخرف . . ولا من الرُؤَى والأحلام المناسبة لسنه وطفولته .

إنما يرسل بصيرته الذكية إلى الآفاق البعيدة والمجيدة لتعود إليه بمَثَله الأعلى ، متمثلاً فى شخصٍ أعظم ، وأعلم ، وأورع ، وأتقى أهل زمانه — ذلكم هو « عبدالله بن عمر بن الخطاب » ! !

و « عبدالله بن عمر » هو عَمُّ والدة عمر بن عبدالعزيز . . فهو منه بمثابة الجَدِّ ، وإن رأينا الغلام يحلو له أن يدعوه بخاله .

لقد راح منذ نزل المدينة يلوذ به ويلازمه ، ويتلقَّى عنه . ويتأسَّى به . .

وكان إعجابه به شديداً ، فهو دائم الإشادة بعلمه . وورعه ، وسخائه ونُبل روحه .

ولطالما كان يداعب والدته بهذه الكلمات المصمّمة .

« تعرفين يا أماه ! ! ؟ ؟ لأكُوننّ مثل خالى ، عبدالله بن عمر » ! !

إنها روح كبيرة . .

أكبر عشرات المرات من جسم صاحبها الغضّ ومن سنه الناشئة . .

إنها روح غلام يتعجل رجولته ، ليس لما فيها من فتوة . . وزَهو . . بل لما فيها من اكتمالٍ لفضائله وازدهار لخصائصه وشمائله . .

* * *

وفى طفولة — ابن عبدالعزيز — نرى احتراماً للنفس ، نادر المثال .

فهو لا يتجنب اللهو المباح لأمثاله وأنداده فحسب . . بل يأخذ نفسه أخذاً وطيداً بمالا يقدر عليه سوى أولى العزم من الرجال ! !

وهو لا يتجنب من الأخطاء ما يُحاسَب عليه الكبار ، ويُغتفر للصغار . .

بل يتجنب منها كل خطأ كبير أو صغير .

فرذيلة كالكذب – مثلا – يواجهها الغلام بمقت شديد ، ورفض أكيد . .

ولسوف نسمعه يتحدث فيما بعد عن نفسه فيقول :

« ما كذَبْت مُذ شددتُ علىَّ إزارى وعلمتُ أن الكذب يضر أهله » ! !

* * *

وفى طفولته الراشدة ، تبهرنا الاستجابة الفريدة التى كان الغلام يتوسل بها لتصحيح ما يتكشف له من خطأ ، وتنمية مايُتاح له من سَداد .

حدث يوماً أن تأخر بعض الوقت عن صلاة إحدى الفرائض مع جماعة المصلين بمسجد الرسول فى المدينة .

وسأله معلمه ومؤدبه « صالح به كيسان » عن سبب تأخره فأجاب الغلام فى صدق : [كانت مُرَجِّلَتى تمشط شعرى] وقال له أستاذه فى عتاب : [أوَتُقدم تصفيف شعرك على الصلاة] . . ؟

وكان – عبدالعزيز بن مروان – قد أوصى « صالح بن كيسان » أن يكتب إليه دوماً بكل أخبار ولده ، فكتب إليه عن هذه الواقعة ، فجاء أمر عبدالعزيز إلى ولده أن يحلق شعر رأسه جميعه . . ! !

وهنا نبصر الغلام وهوَ يزيل أنصع مظاهر وَسامته وأناقته . . يفعل ذلك وهو ممتلئ النفس غِبطة ورضاً ، ليس فقط لأنه عرف كيف يمتثل ويطيع حيث يجب الأمتثال وتَلزم الطاعة . . بل لأنه وجد فى ذلك تكفيراً عن خطئه الذى اجترحه حين ترك رغبته فى استكمال أناقته ووجاهته

تؤخره بعض الوقت – لا كُلَّ الوقت – عن موعد الصلاة . . ! ! !

* * *

إن التطلع إلى السَّداد يحدو روح الغلام بشكل فَذّ – سدادِ الشعور وسداد التفكير ، وسداد الإرادة ، وسداد السلوك .

وهو ، على الرغم من كونه مجرد غلام صغير لاينظر إلى نفسه كأمير ، له الحق فى كثير أو حتى فى قليل من التدلُّل والامتياز .

بل هو ينظر إلى نفسه كإنسان عادى . لروحه وحدها الحق فى الامتياز بما تكتسبه من معرفة ، وفضيلة ، وصواب . .

ونعود فنقول : إن المعجز فى هذا كله ، أن بَطَله ليس إلا مجرد غلام . . غلام فى سِنّ اليَفاع . . ! !

وغُلام وُلد فى أحضان النعيم ، ونشأ فى دنيا حافلة بالترف والإغراء . . ! !

ومن أبهى مظاهر استجابته الرشيدة لتصحيح الخطأ ، واستكمال الرشد ، هذه الواقعة التى يرويها مؤرخو سيرته . .

فلقد كان – فى طفولته – متأثراً بموقف الأمويين من الإمام على كرم الله وجهه ، وبالأباطيل التى روجوها ضده . ولم يكن الغلام قد تبين بعدُ وجهَ الحق فى الصراع الذى نشب بين الإمام الراشد الشهيد ، وبين العائلة الأموية . . .

وحدَث يوماً أن ذكر الإمامَ بسوء ، وانتقلت كلمته إلى شيخه الصالح « عبيد الله بن عبد الله بن عتبة » الذى كان – عمر – يكنّ له أعظم الحب والتوقير .

وذات يوم ذهب الغلام لزيارة الشيخ ، فأعرض عنه ولم يغمره بما عوده من وُدّ . .

وأدرك الغلام أن فى نفس شيخه شيئاً منه ، فحاول بسؤال جانبى أن يتبين الأمر ، فانفجر فيه شيخه قائلا :

« متى علمتَ أن الله سَخِط على أهل بدر ، بعد أن رَضِىَ عَنهم » . . ؟ !

وفهمها الفتى الذكى الرشيد من فوره . . !

فهم أن أدنى مزايا « الإمام على » . . وأقل فضائله ، وخصائصه ، أنه من أهل بدر الذين أخبر الرسول أن الله نظر إليهم فقال لهم :

« اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم » .

وصحا على هذه اللفتة من شيخه صحوة ذكية رضيّة ، وأقبل عليه يقول له فى خشوع وندم :

« معذرة إلى الله . . ثم إليك »

و والله لا أعود لمثلها أبداً » . . ! ! !

ثم عكف على دراسة القضية من جديد بعيداً عن لغو الأمويين وأباطيلهم ، حتى اهتدى إلى الصواب فى يُسر ، وتحولَّ إلى مُنافح عن الإمام العظيم . . حتى لقد جلس يوماً — كما يروى لنا بعض المؤرخين — بين نفر من العبّاد والصالحين راحوا يستعرضون فيما بينهم أقطاب الزهد والورع فى الإسلام ، فإذا ابن عبدالعزيز يصدع فيهم بهذه الكلمات .

« أزهد الناس فى الدنيا ، على بن أبى طالب عليه السلام » ! ! !

* * *

إن الحديث عن الطفولة المرهصة للأغرّ ابن عبد العزيز لايكاد يُؤْذن بانتهاء إذا نحن استطردنا وراء وقائع الحياة المتسامية للطفل وللغلام .

ولقد تجلّت فى تلك السنوات الباكرة الناضرة عزيمة ماضية مقتدرة ، راحت تحرك دوافع الغلام وتقودها على طريق الخير والفضيلة والكمال ، حتى استطاعت طفولته أن تكون نموذجاً متكامل الخصائص والسمات لسنوات خلافته التى ستجىء بعد ذلك بقرابة ثلاثين عاماً ، ، والتى ستكون آية من آيات الله الكبرى ، ومعجزة فريدة من معجزات الإسلام . . .

وعلينا الآن أن نتابع هذه الطفولة الفذّة . . أو بتعبير أصح ، علينا أن نجاوزها ونتخطاها ، لنواجه مرحلة أخرى من مراحل تلك الحياة العجيبة المثيرة الجليلة ، ريثما نبلغ فيما بعد ، عصر الخلافة والإعجاز .

الفصل الثانى

النفس التواقة

[. . إن لى نفساً توّاقة ، لا تَنال شيئاً
إلا تاقت إلى ما هو أفضل منه] ! !



حين
العالية قد وُ
وكانت
وفى فت
كثيراً ماتُؤثر
جماحها ،
تَمورُ مَوْراً با
ولقد ك
الطـراز الم
بعيداً عن ف
ذلك
أتاح أعظم
وبالتالى فى

كل الذى سنراه يحدث فى شبابه ورجولته ، أن فضائله التى كانت إبّان الطفولة تعبر عن نفسها وتعلن عن وجودها تعبيراً محدوداً . . ستوسّع الآن – من آفاق تعبيرها ، وانعكاسات وجودها . .

ذلك أن الشباب يجىء دائماً – حين يجىء – بمسافات واسعة للأحلام والرؤى ، والحركة . . .

والفضائل التى كانت إبان الطفولة ترسل عبيرها من براعمها الحلوة ، تغادر تلك البراعم الآن ، وتذهب فى نموها الجديد لتملأ المساحة الواسعة العريضة التى جاء بها الشباب . . وهكذا تتعدّد تعبيرات تلك الفضائل ، وتتكاثر مظاهرها .

ولْنضرب لهذا مثلاً من حياة « عمر » . . .

إن « أناقة النفس » فضيلة بزغت فى طفولته ، ورأيناها تعبر عن نفسها آنذاك بالترفع عن اللعب مع الأتراب والأنداد والإقبال على مجالس الحكمة مع العلماء والفقهاء .

كما رأيناها تعبر عن نفسها بالترفع عن الدنايا كالكذب مثلا ، الذى أدرك الطفل – وهو طفل – أنه يُزرى بصاحبه ويوقع به الأذى والضُّر . .

كما رأيناها تعبر عن نفسها بتجنُّبها لَغو القول ، ولَغو العمَل ، والاستعاضة عن الأول بالصمت المتأمِّل المفكر . . وعن الثانى بالجدّ المثابر المتزن . . .

هذه الفضيلة نفسها التى أسميناها « أناقة النفس » نلتقى بها فى شباب « عمر » تنمو وتتمدَّد مستصحبة معها تعبيراتها فى أثناء الطفولة فى نماء جديد لها . ثم مُستحدثة تعبيرات أخرى فجرًّها وعى الشباب ومشاعره .

وهكذا نرى « أناقة النفس » تتسع لتشمل أناقة المظهر ، لا باعتبار هذه الأناقة ترفاً ، أو تأنُّقاً ، بل بوصفها امتداداً لفضيلة أناقة النفس واتساعاً لدائرتها . .

ومن ثمّ نبصر الشاب والرجل فى « عمر بن عبدالعزيز » يلبس أبهى الثياب وأغلاها . . ويُضَمِّخ نفسه بأبهج عطور دنياه ؛ حتى إنه ليعبر طريقاً مّا ، فيعلم الناس أنه عبَره من ذلك الأريج الفوَّاح الذى يعبِق به جو ذلك الطريق زمناً طويلاً . ! !

ثم هو يتأنق فى كل شىء . . حديثِهِ . . لفتاتِه . مِشيتِه التى انفرد بها ، وشغف الشباب بمحاكاتها . وعُرفت لفرط أناقتها واختيالها بـ « المِشية العُمَرية » . . ! !

ولكن ، لماذا نقول : إن هذا الإفراط فى أناقة المظهر كان امتداداً لفضيلة « أناقة النفس » ، ولا نقول : إنه كان ردَّ فعل لها . ؟

إن الإجابة عن هذا التساؤل ، هى الإجابة نفسها عن تساؤلات كثيرة ستطرح نفسها علينا كلما رأينا ابن عبد العزيز – وما أكثر ماسنراه – يعبُّ من مناعم الحياة عبًّا ، ويأخذ من أطايبها ومباهجها بغير حساب . .

والجواب عن كل هذه التساؤلات . أننا لم نر فى كل مظاهر النعيم هذه ، ردود فعل تعكس ظمأً أو جوعاً . أو كَبْتاً ؛ لأن صاحبها لم يكن يقف من النعيم منذ وُلد موقف الظمآن المحروم ، ولا الكابِت المكظوم . .

هذا ، أوّل . .

وحقيقة أخرى ، هى أن « عمر » فى أروع تألقات وتأنقات شبابه ورجولته ، وفى الأيام التى كان يخوض خلالها فى النعيم خَوْضاً ، لم يُعرف عنه قط أنه ارتكب إثماً أو اجترح خطيئة من تلك التى تُشكل رَدّ فعل لِهَوًى

مكبوت ، أو رغبة مكظومة .

وعلى أية حال ، فإن تفتحاً هائلاً غمر شخصية الشاب والرجل . . وإن نفسه التوّاقة – كما وصفها هو – لتتقدم خلال هذا التفتح العظيم لشخصيته ، نحو كل المطالع الجديدة لخصائصها وإمكاناتها .

والطبيعة العربية فى جوهرها النقى ، من أشد الطبائع الإنسانية رفضاً للكبْت . حتى حين يكون كبْتاً لأهواء آثمة ، فكيف إذن حين يكون – كما فى موضوعنا هذا – كبْتاً لرغبات مشروعة ، وطموح فاضل وقويم . . ؟ !

وهكذا ندرك أن تلك المباهج التى ستغمر وتميز حياة « عمر » فى هذه الفترة الطويلة من حياته ، لم تكن رَدَّ فعل لفعل مُساوٍ له فى القدر مُضادٍّ له فى الاتجاه . . بل كانت امتداداً للفعل الأول ذاته ، ولكنْ فى مطالع جديدة ، وأزياء جديدة . . ! !

وفى هذه الفترة من حياته تتعاون وراثاته مع مواهبه تعاوناً وثيقاً ، فالنفس التوّاقة التى سنراها تحرك مشاعره وتقود خُطاه ، نجدها لَدَى أبيه « عبد العزيز بن مروان » تدفعه هو الآخر إلى معالى الأمور على نحو عجيب ! !

حدث أن لَحن يوماً فى حديثه مع رجل جاء يشكو إليه خَتَنه ، أى زوج ابنته ، فسأله عبد العزيز : ومَن خَتَنَك ؟

فأجاب الرجل : ختننى الخاتن الذى يختن الناس

فقال عبدالعزيز : إنما أسألك عن اسم خَتَنِك . .

فأجابه الرجل مُعقباً : إذن كان ينبغى أن تقول : من خَتَنُك بضم النون لا بفتحها – فأسرَّها « عبد العزيز » لنفسه فى نفسه . .

وفى اليوم التالى أغلق عليه داره ، وراح يتدارس نحو اللغة وقواعدها

مع نفر من العلماء النُّحاة حتى أجادها وأتقنها وصار مضرب المثل فى الفصاحة . . ! !

ليس ذلك فحسب ، بل أذاع بين الناس فى مصر وأفريقيا حيث انتظمهما حكمه وسلطانه أن الذين يتعلمون العربية ويجيدونها سيكون عطاؤهم من بيت المال أوفى من الآخرين .

وتاقت نفسه إلى الجود ، فصار أجود أمراء بنى أمية جميعاً وأسخاهُم ، ولم يكن يعطى عطاءه للشعراء كى يمتدحوه ويتملقوه كما يصنع الآخرون — بل كان يعطى الذين هم بحاجة إلى العطاء .

وكان شعاره فى هذا السلوك كلماته المأثورة :

« عجبت لمؤمن يؤمن أن الله يرزقه ويُخلِف عليه كيف يحبس ماله عن عظيم الأجر وحُسن الثواب » ؟ !

ولقد وصفه مؤَرخو سيرته ، فقالوا :

« كان من أَعطَى الناس للجزيل » ! !

كذلك كانت نفسه تواقةً للتقوى ، ومخافة الله ، وإن لم يبلغ فيهما مابلغه ابنه من بعده ، ولقد عبر عن هذه الخشية لربه حين أدركه مرض الموت ، فكان يقول !

« وَدِدْتُ أنى لم أكن شيئاً مذكوراً

« ولوددت أنى دَفْقَةٌ فى هذا الماء الجارى

« أو نَبتة بأرض الحجـــــاز » . . ! !

هذه النفس التواقة عند الوالد . تنتقل إلى الابن على نحو أعظم ، وأشمل ، وأغزر .

ولسوف نلتقى بشخصيته المتطورة تحيا حياتها فى مهرجان حافل بالنشاط

والإبداع والاستمتاع – لايمنعها تحرُّج ، ولا يصدها تأثُّم ؛ لأنها فى نشاطها وإبداعها واستمتاعها ، لاتعمل بمعزل عن فضائلها ، بل تعمل فى صحبة هذه الفضائل جميعاً . .

* * *

قلنا : إن المدينة يومئذ كانت مجتمعاً كبيراً حافلاً بكل صنوف النشاط الإنسانى .

فالجانب الروحى ، ينهض فى ممثليه من الزهاد ، والعبّاد ، والصالحين . .

والجانب العلمى ، فى مُمَثِّليه من العلماء ، والفقهاء ، والمحدّثين . .

ودنيا الفنون ، ممثلة فى الشعراء ، والعازفين ، والمغنِّين . .

ولقد أشبع – عمر – نزعته الروحية منذ طفولته بصحبة العابدين والزاهدين والتلقى عنهم . .

كما أشبع طموحه العلمى بجلوسه الطويل بين أيدى العلماء والفقاء ، وبتعلمه منهم ، وتَأسّيه بهم . .

ولسوف تواصل دوافعه الروحية والعقلية نموها ورحلتها .

لكن الجديد الذى نلتقى به الآن فى شبابه ، هو نزوعه الفنِّى العجيب الذى يكشف عن موهبة فنية أصيلة لديه . . !

إن الرجل الذى أذن لكل مواهبه أن تنشَط وتتألق ، يفاجئنا الآن بصوت شَجِىٍّ عَذْب لو احترف الغِناء لَبَذَّ بصوته أساطِينَه . . كما يفاجئنا بموهبة فى التلحين لو احترفها لبذَّ بها أقطابَه . . يسبق هذا وذاك ولَعُه بالشعر العربى وحفظه الكثير منه وقدرته على نقده ، وتمييز أجودِه ، من جيِّده ، من رديئه . .

لقد وضع الفنَّان الموهوب لحناً آسراً لهذه الأبيات .

سُلَيْمى أزمَعَتْ بَيْـنا فأين تَظُنها أيْنَـا
وقد قالت لأتـراب ٍ لهـا زُهْرٍ تلاقَيْنـا
تعالَيْنَ فقـد طاب لنـا العيش تعالَيْنا

وراح يتطرب بها ويتغنى لنفسه وبين أصدقائه ، بَيْدَ أَنَّ اللحن لم يلبث حتى ذاع ، فراح المغنون يَشْدُون به فى كل مكان . . !

ولقد كان ابن سريج وهو عميد المغنين بالحجاز يومئذ ، يغنى من لحن « عُمر » .

عَلِق القلبُ سعـادا عادت القلبَ ، فعادا
كلما عُوتِب فيهـا أو نُهِى عنها تمـادَى
وهو مشغوف بِسُعـدى قد عصَى فيها وزادا

غير أنه برغم استمتاعه بكل صوت جميل . . وانتشائه بكل غِناء عَذْب ، بل على الرغم من صوته الندى الشجِيّ ، لم يكن يُرخى العنان لموهبته واستمتاعه ، فقد كان صوتُ تُقاه يعلو دوماً داخل نفسه ؛ حتى إننا لنراه يقول – أكثر من مرة – وهو يستمع لابن سريج يُغنى :

« لله دَرُّ هذا الصوت ، لو كان بالقرآن » ! !

ونجد الشعر يظفر منه باهتمام كبير ، ولا غَرو . . فالشعر يومئذ كان ثقافة العصر ولُغَته . .

ولئن كان – عمر – لم يقرض الشعر ولم يُنشىء قصائده ، فإن نفسه التوّاقة التى جعلته يُزاحم فى العزف والغناء أقطابهما حتى يتفوّق عليهم دون أن يشاركهم الاحتراف . .

هذه النفس التواقة تدفعه لكى يُدلى فى ثقافة العصر بِدَلْوه العظيم ،

فإلى جانب ماحصل من علوم الدين والفقه ، راح يُقبل على الشعر حافظاً وناقداً . .

ولقد كان الولَع بالشعر من أوضح سمات المجتمع العربى والإسلامى فى تلك العهود .

وفى العصر الأموى ، كان له دَوِىّ كدوىّ النحل ، وكان فحُوله الثلاثة — جرير ، والفرزدق ، والأخطل — الذين نُعتُوا بـ « المثلث الأموى » . . يملأون الدنيا ويشغلون الناس . .

* * *

ولسوف تطرأ على حياة الشاب ظروف جديدة تشد زناد نفسه « التوَّاقة » إلى أقصاه فى مضمار التفوق فى مجال العلم ودنيا الشعر .

ذلك أن أباه — عبد العزيز بن مروان — يموت بمصر حيث كان والياً ويدفن تحت ثراها الطيب ، فيضم الخليفة ، « عبد الملك بن مروان » ابن أخيه إليه ، ويزوجه ابنته « فاطمة » . .

وعبد الملك هذا ، كان طويل الباع فى الفقْه ، والعلم ، والشعر بل كان فى الفقه يُضاهَى بعروة بن الزبير ، وسعيد بن المسيّب .

قال عنه الشعبي :

« ماذاكرت عبد الملك حديثاً إلا زادنى فيه ، ولا شعراً ، إلا زادنى فيه »

وقال هو عن نفسه :

« شيَّبنى ارتقاء المنابر ، وخوف اللَّحن »

ولعلّ حواره هذا مع جرير يعطينا صورة لخبرته الواسعة بالشعر والشعراء .

فقد سأل جريراً يوماً :

: مَن أشعر الناس ؟

قال جرير : ابن العشرين . يعنى طَرَفَة بن العبد ، لأنه قُتل فى سن العشرين .

قال عبد الملك : فما رأيك فى ابنى سُلْمى . . ؟ يعنى زهيراً وابنه كعباً . .

قال جرير : كان شعرهما نَيِّراً ، يا أمير المؤمنين .

قال عبد الملك : فما تقول فى امرئ القيس ؟

قال : اتخذ الخبيثُ الشعر نعلَيْن .

قال الخليفة : فما تقول فى ذى الرُّمَّة ؟

قال جرير : قدَر على طريف الشعر وغريبه ، كما لم يقدر على ذلك أحد . .

قال عبد الملك : فما تقول فى الأخطل . . ؟

. . . ثم ما تقول فى الفرزدق . . ؟

. . . ثم ما رأيك فى نفسك وشعرك . . ؟

ويمضى الحوار بينهما طويلا – كما يرويه صاحب الأغانى – لتتجلى من خلاله الخبرة العميقة بهذا الفن لعبد الملك بن مروان . والآن ، وعمر بن عبد العزيز يعيش مع هذا العلاّمة تحت سقف واحد . فإن نفسه التواقة تدفعه دفعاً قويًّا ليضارع هذا العمَّ المتفوق فى الفقه ، وفى العلم ، وفى الشعر . . !

بيد أن الزمام باق دائماً فى قبضة فضائله . . وأيَّانَ تذهب مواهبه وتُحلِّق ، فإن لفضائله ولدِينه الكلمة الأخيرة ، مهما تتوَاثب نفسه التواقة ، ومهما يأخذها الطموح ؛ فمع ولعه بالشعر وإقباله عليه ، نلقاه يعزف عزوفاً نبيلاً عن كل مافيه من إسفاف الهجو والتشبيب . حتى لسوف نراه حين يصبح

والياً للمدينة ، يخرج منها « عمر بن أبي ربيعة » لما كان يزخر به شعره من مجانة ، واستخفاف بالحُرمات . . . ! !

* * *

خلاصة القول أن – عمر بن عبدالعزيز – أسلَم مواهبه لغاياتها البعيدة . .

كما أسلم شبابه لطيبات الحياة ونعيمها فى نطاق ما أحل الله لعباده . .

ولقد ساعد طبيعتَه الجياشة فى الظفر بكل ماتريد ، أنها وجدت فى الحلال أقصى ماتريد . . وأن الشاب الذى لم يكن ينقصه الفقه وسَعة الأُفُق . لم يُحاول كبح جماحها أبداً . . ! ! !

لكأنما سرّه منها شرفُها واستقامتها وترفعها ، فكافأها على ذلك وأثابَها بتركها تنال من المناعم ، وتظفر من الطيبات بأقصى ما تشتهى وتريد . .

ولكأنما أراد القدَرُ الحكيم أن يجيء شباب ابن عبد العزيز على هذه الصورة المستغدِقة ، حتى إذا تسنَّم الخلافة فيما بعد ، ووقع فى حياته ذلك الانقلاب الروحى الذى سَيحوِّله إلى واحد من أعظم القدِّيسين ، يتبين للدنيا يومئذ أن زهده وورعه لم يكونا مظهراً لطبيعةٍ منطوية ، هادئة ، هامدة . . بل كانا ثمرة تفوق روحى خارق ، على طبيعة هادرةٍ بالطاقة . . جيّاشة بالطموح . . ! !

أجل . . لسوف يُرينا القدَرُ من أمر هذا الرجل عَجباً . . ! !

فبينما هو اليوم يُجاء له بثوب من أغلى وأثمن وأنعم حرير العراق فيتحسَّسُه بأنامله ثم يقول متأففاً :

« ما أخشَنه من ثوب . . . ! ! »

إذا به غدا عندما سنلتقي به خليفة للمسلمين ، يُجاء له بثوب خَشِن يعافُه أكثر الناس فقراً ، فيتحسَّسه بنفس الأنامل ، ثم يقول والدموع تنهمر من عينيه :

« ما أَلْيَنَه ، وأنعمَه . .

إيتونى بثوب أخشنَ مِنه . . . ! ! ! »

* * *

فلْيُتقِ الأمير الأموى ماشاءت له نفسه التواقة الذواقة . فإن فترة تَوْقَهِ هذه ، ستكون المرآة التى تعكس لنا الإعجاز الخارق الذى ستفاجئنا به سنوات خلافته . . ! !

لِيَتُقِ الآن ماشاء . . .

ليلبس من الثياب أرفهها وأنعمَها . . ولْيَنَلْ من المطاعم أشهاها وأطيبها . . وليركب من الجياد أعلاها وأطهمَها . . ومن الفُرش أسخاها وأوثَرها . . ! !

ولْيَنهل من العلم بغير حساب . .

ولْيذهب من الفضائل بكل مكرُمة وثواب . .

ولْيحتوِ الدنيا بطولها وعَرضها ، كما يحتوى الغلاف الكتاب . . ! !

* * *

هاهو ذا ، يتقلب فى نعيم يتعاظَم كل وصف ، ويتحدَّى كل إحاطة . . إن دخله السنوى من راتبه ومخصصاته ، ونتاج الأرض التى ورثها من أبيه يجاوز أربعين ألف دينار . . ! !

وإنه ليتحرك مسافراً من الشام إلى المدينة ، فينتظم موكبه خمسين جَمَلاً ، تحمل متاعه . . ! !

وإنه لَيشترى الثوب من أغلى الأثواب وأبهاها ، فيرتديه مرة واحدة . . وإنْ تَواضَع فمرتين . . ثم يبدو فى عينيه قديماً بالياً . . ! ! !

وإنه لَيُسْبِلُ إزاره ، حتى يكاد يتعثر بذيله الهفهاف . . ! !

ويمشى مِشية متأنقة ، يكاد يحسده عليها الطاووس . . ! !

ويَعصِف ريحه ، ويتضوَّع عبيره حيثما سار . . ! !

إنه لَيبدو ، وكأنه فى سباق ضارٍ – لا مع أصحاب النعيم – بل مع النعيم ذاته . . ! !

فوا عجباً . . ! !

كيف يستطيع هذا الرجل أن ينسلخ من هذا كله ، وفى لحظة من الزمان ، حين تواتيه الخلافة ؛ حتى يذهب إلى أقصى أبعاد النقيض وآماده . . ؟ ! !

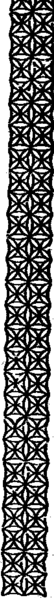
ألاَ إن شوقنا لرؤية ذلك التحول المذهل ، لَيكاد يُعْجِل بنا ويقفز . . لكن علينا أن نُصابر ونَستأنى ، حتى لا يفوتنا من مشاهد حياة ذلك الإنسان المعجز مانحن فى حاجة إليه ، لكى نرى كل ملامح الصورة . . وزوايا الإطار . . ! !

الفصل الثالث

التجربة

[.. أرى دنيا يأكل بعضُها بعضاً] ! !





فى سنه الخامسة والعشرين . اختاره الخليفة الأموى – الوليد بن عبد الملك – ليكون والىَ المدينة وحاكمها .

وتهللت المدينة لهذا الاختيار ، فسيرة ابن عبدالعزيز كانت تسبقه إلى كل مكان كالعبير . .

ثم إنه بما عُرف عنه من فضل ، يَلِى إمارة المدينة مكان أميرها المخلوع – هشام بن إسماعيل – الذى كان لظلمه ولشراسته موضع النقمة والاستهجان .

وإن الأمير الجديد لَيبدأ حكمه بداية تُؤلِّق من فورها الفارق . العظيم بين طرازه ، . . وطراز الولاة الآخرين . .

فبينما كان سلفه يحيط نفسه بطائفة من القُساة الغِلاظ الفاسدين ، فيلقى فى رُوع الناس ، بمسلكه هذا ، أن العملة الزائفة هى الرائجة – جاء هذا الأمير المبارك فأعلن بمنهجه الجديد والمجيد أنه لا يصحّ إلا الصحيح ! ! وأن الخير ، لاالشر . والصدق ، لا الملَق . والاستقامة ، لا الزيغ . . هى دستور إمارته ومنهج عصره . . ! !

ومن ثمَّ بدأ – أول مابدأ – باختيار عشرة من أئمة العلم والورع والفضل فى المدينة ، فجعلهم مجلس شُوراه .

وهؤلاء العشرة هم : [عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وأبوبكر بن عبد الرحمن ، وعروة ، وأبوبكر بن خيثمة ، والقاسم بن محمد بن حزم ، وسليمان بن يسار ، وخارجة بن زيد بن ثابت ، وسالم بن عبد الله ، وعبد الله ابن عامر ابن ربيعة] .

وفى أول اجتماع له بهم قال لهم :

« إنى دعوتكم لأمر تُؤجَرون عليه ، وتكونون فيه أعواناً لى على الحق . .

أناشـــدكم الله إن رأيتم عدواناً أو باطلاً إلا أبلغتمونى أمره ، وأرشدتمونى إلى الحق » . .

ولقد كان فى استهلاله هذا بتقدير أهل الصلاح والتقى والعلم . إنما يرفع للناس جميعاً لواء الحياة الجديدة التى سَيحيَوْنها فى إمارته ويملأ أنفسهم بالسكينة والأمْن . .

* * *

وراح يجعل من ولايته مثلاً عالياً . واتسعت رقعة سلطانه فصار والياً على الحجاز كله – مكة ، والمدينة ، والطائف ، وما حوْلها .

ولكأنما أراد القدر أن يجعل من إمارته هذه تجربة للمهمة الجليلة والعظيمة التى يدَّخرها له فى غد ، يوم تنتهى إليه خلافة المسلمين ، وحكم الدولة المسلمة من أقصاها إلى أقصاها . .

وسنرى كيف تبلغ التجربة مداهـا البعيـد من النجاح والتوفيق . فابن

عبد العزيز يضع كلتا عينيه على أخلاقيات الحكم ؛ ليجعل من إمارته واحَـة رَيّانة خضراء وسط الجحيم الذى كان يُؤَرِّث ناره أكثر الولاة الأمويين . . !

وإنه لَيلتمس مجده ، لا فى صَلَف المنصب وجَبَروتِه ، بل فى تواضعه الشديد للناس ، وفى العدل يتحرَّاه ويقيم موازينه بالقسط ، وبالرحمة ينشر ظِلَّها على كل مُصْطلٍ وحَرُور ، ويمنح دفئها كل مُفَزَّع مقرور . . ! !

وهكذا صار – وفى سرعة فائقة – مَهْوَى أفئدة الناس وموضع حبهم الوثيق . . ! !

والعلماء الذين كانوا لصلاحهم وتَرفُّعهم يتجنبون الولاة والأمراء . ولا يحملون لأكثرهم مودة ولا احتراماً – راحو يَهبون إجلالهم الصادق لابن عبد العزيز ، حتى إن « سعيد بن المسيب » وهو يومئذ من أعظم علماء المسلمين كافة ، والذى كان يرفُض طوال عمره أن يسعى لزيارة أمير أو خليفة ، بل كان يرفض استقبال الأمراء ومجالستهم . . هذا العالم الورع الكبير نراه اليوم يخفّ فى جلال مَشيبه إلى دار الإمارة مرات ومرات ليلقى عمر بن عبد العزيزِ ، ويجالسه ، ويُحادثُه . . ! !

* * *

راح الأمير الشاب ينشر بين الناس العدل والأمن ، وراح يُذيقهم حلاوة الرحمة وسكينة النفس ، مخترقاً ذلك الستار الرهيب الذى أحاط الأمويون به أنفُسَهم ومُلكَهم صارخاً بكلمة الحق والمعْدَلة ، نائياً بنفسه عن مظالم العهد وآثامه ، متحدياً جبَّارِيه وطُغاتِه . . وعلى رأسهم الحجاج ابن يوسف الثقفى . .

حدث يوماً أن أناب الخليفة عنه فى موسم الحج ، طاغية العراق الحجّاج .

وكان « عمر بن عبدالعزيز » يمقته أشد المقت بسبب طغيانه وعَسْفه ، فأرسل إلى الوليد بن عبدالملك – الخليفة يومئذ – يسأله أن يأمر الحجاج ألّا يذهب إلى المدينة ، ولا يمرّ بها ، برغم أنه يعرف ماللحجاج من مكانة فى نفوس الخلفاء الأمويين . وفى نفس « الوليد » بصفة خاصة . بل برغم إدراكه لما سيسببه موقفه هذا من إثارة مغايظ الحجاج الذى كان ذا مقدرة رهيبة على الانتقام لنفسه .

ولقد أجاب الخليفة طلب – عمر بن عبد العزيز – وكتب إلى الحجاج يقول :

« إن « عمر بن عبد العزيز » كتب إلىَّ يَستعفِينى من مَمَرِّك عليه بالمدينة ، فلا عليك ألاَّ تمرَّ بمن يكرهك ، فَنحِّ نفسك عن المدينة » . .

* * *

إن مقت « عمر » لرجل كالحجاج ، وهو لم يتبوَّأ منصب الخلافة بعد ، ولم يقع له ذلك الانقلاب الروحى الهائل الذى سنشهده حين يُستخلَف ، لَيكشف عن نقاء جوهره . وأصالة تقواه .

فالأمويون مدينون للحجاج إلى مدى بعيد ببقاء ملكهم واستمراره ، واتساع رقعته . . وهو لهذا كان موضع إعجابهم ، ورعايتهم .

ولكن ، ماذا يعنى رجلاً كعمر بن عبد العزيز ، من هذا المُلك العريض ، إذا كان قد قام واتسع على أكتاف طُغاة كالحجاج ؟ ؟

إن موقفه هذا من الحجاج ومن نُظرائه ، يُزكّى إحساسنا بأن القَدر أراد لفترة الإمارة هذه أن تكون تجربة لغده العظيم . فعمر يعلم – كما أسلفنا – أن تحدّى الحجاج ليس أمراً سهلاً . إذ كان الحجاج يومئذ قوىّ القبضة على الكثير جدًّا من مقادير الدولة ومصايرها .

وهو يعلم أن خلفاء بنى مروان مستعدون أن يضحوا بكل عزيز وغال فى سبيل الحجاج ؛ ماداموا لايزالون بحاجة إلى بطشه ودهائه . . .

لكن ذلك لايعنى الرجل الأمين على مسئولياته . . إن الذى يعنيه ويتحتم عليه . هو أن يأخذ جانب الحق مهما تكن العقبات والعواقب . .

إنـه الآن يرى الأمور رؤيـة ذكية ، وإنّ تجربة الولاية والحكم لَتُنىء عليه بصراً سديداً بما يجرى حوله فى الدولة الواسعة العريضة التى يسوسُها الأمويون .

وهو ، وإن يكن أميراً أمويًّا ، لا يُخدع بالمظاهر الفارغة عن الواقع والحقيقة ، ولا يبيع دينه بدنيا عائلته وقومه . . ! !

* * *

إن الدنيا تموج من حوله بالأطماع والضلالات .

إنها كما أرَتْه تجربتُه ، وكما وصفها هو : [دنيا يأكل بعضها بعضاً] . . ! !

ولو كان أمر هذه الدنيا بيده لقَوَّم اعوجاجها . . ولكن ليس بيده الآن سوى إمارته . .

أجل . . إن سلطانه – بل بعض سلطانه – إنما ينحصر فى بلاد الحجاز وحدها ، حيث هو أميرها وواليها . . وإذن فليؤد واجبه

تجاهها ، ولْيطبعها بطابع شخصيته المستقيمة الصادقة العادلة . فما ينبغى أن يظل وجه الحياة بعد مجيئه كما كان قبل مجيئه . . ! !

لا بد أن يتغير كل شيء . . الناس بنفوسهم وسلوكهم . . والأرض بما فوقها من عمارة ، وبما يشقُّها من طرقات وقَنوات . .

وهكذا راح يُعمِّر ويُعمِّر ، بادئاً بالمسجد النبوى فأعاد بناءه . . وأرسل بعثات التعمير فى كل أرض الحجاز ، يحفرون الآبار ، ويشقّون الطرق . .

وفى حدود ولايته وسلطانه ، ردَّ للأموال العامة كرامتها وحرمتَها ؛ فلم تعد سهلة المنال لكل ناهب وخالِس ، كما لم تعد ألعوبة فى يد كل مُسرِف ومُترَف . بل وجد كلُّ درهم مكانه الحق والصحيح ، لا يجاوزه ولا يتعدّاه . . ! !

وفتح أبواب المدينة للهاربين من ظلم الولاة فى كل أقطار الدولة . . وحماهم من المطاردة ، ووفر لهم الطمأنينة والأمن . .

* * *

وفى العام الثانى من إمارته حدثت ظاهرة يكتفى المؤرخون بمجرد تسجيلها ، على حين نرى فيها سبباً وثيقاً من أسباب التطور بل الانقلاب الروحى الذى سيغمر شخصيته بعد حين . ففى ذلك العام ، ولاّة الخليفة إمارة الحج . ولم يكد موكبه يبلغ مكة حتى ألْفَى أهلها فى قَحط وعُسْر ومَشقة ؛ فما كان منه إلا أن دعا صفوة العلماء والصالحين ومن شاء من عامة الناس أن يتبعهم ، ثم خرج بهم إلى فضاء مكة ، ثم وقف « ابن عبد العزيز » يدعو الله ويَضْرَع إليه بعد أن صلى بهم صلاة الاستسقاء . . فإذا شيء يشبه المعجزات ، إذ لم يغادر مكانه حتى هطل المطر على غير موعد ، وفى غير ميقاته ، ولم يصدق الناس أبصارهم التى راحت تُحدِّق فى سماء زرقاء ناصعة

صافية ، ليس فيها مُزعة سحاب . . ! !

وشهدت مكة فى عامها ذاك خُصوبة نادرة ! !

فى تقديرنا ، أن هذه الظاهرة لابد أن تكون قد استقرت واستكنّت فى أعماق نفس « عمر » متحولة مع الأيام إلى خبرة روحية سيكون لها أثرها المباشر فى انقلابه الروحى المقبل . .

إذ لابد أن يكون « شعوره » أو « لاشُعورُه » أو هما معاً قد أدركا أمام هذه الكرامة الواضحة ماأودِعه الله فى روحه من سِرٍّ ، وولاية ، وقَداسَة . . . !

* * *

على أية حال ، فقد استغرقت الأميرَ مسئولياتُه ، فابتعد عن الكثير من هواياته – عن الشعر والشعراء . . والمغنين والغناء . . وإن بقى له شَغفه بالتأنق وطيبات الحياة .

رآه يوماً أحد الزهاد يشترى ثوباً رافهاً بثمن غال ومرتفع فقال له :

– أوَ مَا كان الخير لك أن تضع ثمنه فى جيوب الفقراء ؟ فلم يغضب ولم يستنكف ، بل أجابه قائلا :

[وهل رأيتَنى أهملتُ الفقراء . . ؟] !

وهو جواب حق لامراء فيه ، فقد كانت أيام إمارته على المدينة والحجاز أيام رخاء وبركة ، قلما شهد الناس مثلها .

ولم تَشغله الإمارة عن تجويد فضائله وتنمية تُقاه ، فعكف على العبادة عُكوفاً مُثابِراً ، وكثيراً ما كان يحلو له أن يقضى الليل فوق سطح مسجد الرسول يعبد الله ويدعوه . .

صلىَّ وراءه « أنس بن مالك » صاحب رسول الله ثم قال :

« ماصليت وراء إمام أشبه بصلاة رسول الله من هذا الرجل » ! !

كذلك لم تَشْغَلْهُ الإمارة عن مُواصلة التزوُّد من العلم والفقه ، فراح يُثْرى عقله ويملأ بالعلم فكره ، حتى صار فى هذا المضمار حُجَّة وإماماً . .

وقف أبو النضر المدينى يخاطب علماء المدينة يوماً ، فقال وهو يشير صَوْب « عمر بن عبدالعزيز » :

[إنه والله أعلمُكُم] . . ! !

بل إن العالم الجليل « مجاهد بن جبير » الذى عَرَض القرآن على « ابن عباس » ثلاثين مرة . . والذى كان من الأئمة المعدودين ، يقول عن « عمر بن عبد العزيز » :

« أتينا عمر نُعلمه ؛ فما رجعنا حتى تعلّمنا منه » ! !

والإمام « اللَّيْث » يقول أيضاً :

« ما الْتمسنا علم شىء ، إلا وجدنا عمر بن عبد العزيز أعلم الناس بأصله وفرعه . وما كان العلماء عنده إلا تلامذة » . . ! !

إن هذه الشهادة من أولئك الأقطاب الكبار . لترسم صورة باهرة للطريقة التى كان عمر يُنمِّى بها فضائله العقلية والروحية .

تُرى إلى أى مدًى يستطيع النظام العام للدولة الأموية أن يحتمل رجلاً من طراز عمر . . تكشف استقامته ونزاهته كلَّ عَوْراتِ ذلك النظام وتَفضح سوآتِه . . ؟ !

إنــه لن يصبر عليه إلا قليلا . . وعلى الرغم من أنه أمير بارز فى أسرة بنى مروان الحاكمة ، وعلى الرغم من أنهم جميعاً ، وبلااستثناء ، يهابونه ويحترمونه ؛ فإنهم لن يطيقوا على منهجه الجديد المجيد صبراً . .

* * *

لقد كان دائم التنديد بسوء الحكم وطغيان الولاة . ولقد قلنا من قبل : إن الحجاج طاغية بني مروان . لن ينسى مقته له : ولا تشهيره به .

وها نحن أولاء ، نراه ينتهز فرصة إيوائه بعضَ المعارضين لمظالم العهد والمنددين بها ، فينسج مؤامراته ووشاياته مُوغِراً صدر الخليفة على ابن عمه وزوج أخته ، وواليه على الحجاز « عمر بن عبدالعزيز » . .

لقد أرسل الحجاج إلى الخليفة – الوليد بن عبدالملك – يشكو إليه استقبال « عمر » وإيواءه كل الذين يطلبهم الحجاج ليحاكمهم على مؤامراتهم ضد الأمويين . .

ولقد كان السبيل ممهداً لوشاية الحجاج . وربما لأية وشاية تريد النَّيْل من – عمر – . ذلك أن منهجه العام كان من السمو بحيث لايطيق الآخرون من بني مروان محاكاته ، بل لا يطيقون مُعايشتَه . .

علم الخليفة يوماً أن بعض الناس في إمارته يُمعنون في تجريح الخلفاء الأمويين وسبِّهم ، فاستدعاه إليه وسأله :

ماتقول فيمن يَسُبُّ الخلفاء ؟ . أيُقتل . . ؟

فصمت « عمر » ، ولم يُعَقِّب . .

وازداد الخليفة تجهُّماً وعُبوساً ، وأعاد سؤاله :

ماتقول فيمن يسبُّ الخلفاء ؟ – أيُقتل . . ؟

وفي استمساك وثيق بدينه وبفضائله ، أجابَ وهو غير مُلْقٍ للعواقب بالاً :

« هل قَتَل نفساً بغير حق ، يا أمير المؤمنين . . ؟ ؟

قال الوليد : لا ، ولكنه سَبَّ الخلفاء ، وانتهك حُرماتِهم .

وفى هدوء راسخ ، أجاب « عمر » :

« إذن يُعاقَب بما انتهك للخلفاء من حُرمة ، ولكن لايقتل . . » ! !

وأنهى الخليفة المقابلة بإشارة غاضبة رَعْناء ، وانصرف « ابن عبد العزيز » عنه وهو يتوقع منه نقمة عاجلة ، صَوَّرتها كلماته هذه :

« . . فخرجتُ من عنده ، وما تَهُبُّ ريح إلا وأظنها رسولاً منه يدعونى إليه » ! !

* * *

فى هذا الجو المتوتر ، قرر الحجاج أن يصطاد غريمه ، فألقى وشايته السالفة . .

والحق ، أن « عمر » : كان يفتح صدره ، كما يفتح أبواب المدينة للهاربين من طغيان الحجاج ، وغير الحجاج .

والحق أيضاً ، أنه كان يحترم حقهم فى نقد أخطاء الحكم وكشف زيفه وفساده .

بيد أنه لم يكن بين هؤلاء الذين يُؤويهم ويَحميهم من يُدبِّر انقلاباً مسلحاً ضد الدولة ، كما حاول الحجاج أن يُوهِم الخليفة الوليد . .

ولعل وشاية الحجاج كانت ستَبُوء بالخِذلان ، لو أن « عمر » اصطنع قليلا من المسايرة واللين فى دحضها . .

لكن فطرته الطاهرة النقية الجياشة ، لم تكن تعرف فى مثل هذا المجال مُسايرة ، أو لِيناً . .

وهكذا ، لم يكد الخليفة يرسل إليه متسائلاً عن دعوى الحجاج ، حتى كتب له ردًّا يفيض بأساً وصرامة .

فقد راح يحدثه عن العدل الغائب والظلم المخيِّم . . ويُدمْدِم عليه بالمظالم البشعة التى يقترفها الحَجّاج وأشباهه تحت ستار استبقاء السلطان لبنى مروان . . وراح يصارحه ، بأنه ليس ثمة دولة تحترم نفسها ، تَقبل أن يكون طاغية كالحجاج بين وُلاتها . .

ثم قال قولته الصادعة الرائعة :

« لو جاءت كلُّ أمة بخطاياها يوم القيامة ، . . وجئنا نحن بالحجاج وحده لَرجَحْناها جميعاً » . . ! ! !

ورأى « الوليد » نفسه أمام كفاية خُلقية قادرةٍ على تحدِّيه بل إهانته ، فأصدر أمره بعزل « عمر » عن ولاية المدينة والحجاز . .

وغادر البطل المدينة التى لم يُحِبّ فى الدنيا بلداً ، قدر حبه لها . .

غادرهاإلى الشام ، بعد أن لبث فى ولايتها ستة أعوام ملأ البلاد خِلالها عُمراناً وأمْناً ، وملأ الناس رخاء وبهجة . . ! !

* * *

وفى الشام لم يسأل نفسه ، ماذا يصنع . . ؟ ولا كيف يقضى أوقات فراغه ؛ فلم يكن فى حياته فراغ . . إن كل دقيقة فيها مشغول بالعمل ، مملوءة بالطاقة . . وإن الجهد المبذول لِبلوغ الكمال المرموق ، لَيدفع كل ساعات حياته ودقائقها فى طريق هذه الرحلة المقدسة والسفر المبارك الميمون . . ! !

وفَوْرَ رجوعه إلى الشام ، وجد جيش الدولة يتحرك للقاء جيش الامبراطورية الرومانية الشرقية التى كانت دائبة التحرش بالدولة المسلمة والشغَب على حدودها . فانتضَى « عمر » سلاحه وحمل نِيَّته الصالحة ،

وأخذ مكانه بين المقاتلين – جنديًّا عاديًّا ، يرجو ظفر المؤمنين أو عُقْبىَ الشهداء الصالحين . . ! ! !

ويعود من الحرب ، فيعكُف على نفسه فى محراب الفضيلة والتُّقى . .

وكما وجدناه فى المدينة يُؤْثِر صحبة الأبرار من أمثال « عبيد الله ابن عُتبة » . نجده فى الشام يؤثر صحبة الأخيار ، أمثال « رجاء بن حَيْوَة » . . كما راح يراسل إمام عصره « الحسن البصرى » ويتعلم منه ، ويحاول السير على دَرْبه . .

وراح يدير خواطره على أخطاء الدولة ومشكلات الجماعة .

وكثيراً ما كان يأخذه الأَسَى والجزع – ولكن ماذا يصنع وليس له من الأمر شيء . . ؟ !

إن كل ما يستطيعه ، أن يرفع صوته عالياً ضد الفساد والظلم ، ولقد فعل . .

وكان الناس يتناقلون عنه فى شتَّى الأقطار بعض عباراته اللافحة التى يقذف بها فى وجه البيت الأموى الحاكم .

من تلك العبارات قوله :

« الوليد بالشام ، والحجّاج بالعراق ، ومحمد بن يوسف باليمن ، وعثمان بن حيان بالحجاز ، وقُرّة بن شريك بمصر ، ويزيد بن أبى مسلم بالمغرب . . ؟

« . . . امتلأت الأرض والله جَوْراً » ! ! !

* * *

ويموت « الوليد بن عبد الملك » . .

ويخلُفُه أخوه « سليمان بن عبد الملك » . .

وعلى الرغم مما يُكِنِه « سليمان » لعمر بن عبد العزيز من إجلال ومحبَّة ، فقد خافه « والياً » . . ومن ثم آثر استبقاءه أخاً وصديقاً . . وإن زاد ، فَناصحاً . . ! !

كانت روح « عمر » تسمو صاعدة نحو مطالعها .

وكانت العبادة تصقُل روحه ، كما يصقل العلم فكره ، وراح يُثابر على أداء دوره مُبَشِّراً بالفضيلة ، والحق ، والخير ، نذيراً ضد السوء ، والضلال ، والشر .

وإنه لَيقيس بمقياس الدين القويم كل اتجاهات الدولة فى حروبها وسياستها . . فى مجتمعها ، واقتصادياتها ، وأخلاقياتها . . فيجدها فى كل ذلك جانحة لهوى الخلفاء والأمراء والولاة ، بقدر ما هى بعيدة عن روح الدين ومنهجه . .

هنا لك أخذ على عاتقه الجهر دوماً بهذه الحقيقة وإعلانها .

* اصطحبه الخليفة « سليمان » يوماً لزيارة بعض معسكرات الجيش .

وأمام معسكر يعجُّ بالعتاد وبالرجال ، سأله « سليمان » فى زَهْو :

ما تقول فى هذا الذى ترى يا عمر . . ؟ !

وسَرعان ما جاء جواب عمر ، كقاصمة الظهر ، فقد قال :

« أرى دنيا ، يأكل بعضها بعضاً وأنت المسئول عنها ، والمأخوذ بها ».. ! !

وبُهت الخليفة لهذه الإجابة التى لم يكن يتوقعها ، فعقَّب عليها قائلا له : ما أعجبك . . ؟ !

وإذا « عمر » يجيب قائلا :

« بل ما أعجبَ مَن عرف الله فعصاه . . وعرف الشيطان فاتَّبعَه . .

وعرف الدنيا فركَن إليها ؟ ! ! !

* كذلك اصطحبه الخليفة فى رحلة للحج . . وفى الطريق فتحت السماء أبوابها بماء مُنْهَمِر ، ففزع سليمان ، وأرعبه السيل الكاسح . ونظر فإذا ابن عبد العزيز يضحك ؛ فسأله سليمان :

أَلِمِثْلِ هذا يضحك الناس ..؟ !

فأجابه عمر :

« يا أمير المؤمنين . هذا فى حين رحمته ، فكيف به فى حين غضبه »؟! !

أجل . . إذا كان المطر الذى هو من آثار رحمة الله وغَوْثه ، يمكن أن يبتعث الخوف ويُوقع الضُّرَّ ، فكيف بغضب الله وعقابه . . كيف بنقمة التى أعدَّها لتكون نِقَماً ووبالا ؟ ؟ .

* * *

على هذه الوتيرة ، راح – عمر – يُلقى نُـذُرَه ، محاولاً أن يفتح الأعين العُمْى ، والآذان الصُمّ . .

وعمَّا قليل ستمد الأقدار يمينها نحوه ، هاتفة به كى يتقدم ليحمل المسئولية الكبرى ، خليفة للمسلمين وأميراً للمؤمنين .

فإلى أن نلتقى – إن شاء الله تعالى – فى أروع أيام حياته تلك . . بل أروع أيام حياة البشرية المتسامية كلها ، علينا الآن أن نلقى نظرة سريعة على نوع ذلك الميراث المبهظ الفادح ، الذى سيُكتب على ابن عبد العزيز أن يحمله ويُقوّم اعوجاعه . .

هذا الميراث الذى ينتظم العهد الأموى ، الذى بدأ باستخلاف معاوية ، ويقف الآن عند سليمان بن عبد الملك بن مروان . .

الفصل الرابع

التَّركة القاتِلة

[انْجُ سَعْد . . .
فقد هلَكَ سَعيد] ! !



استقر الأمر لمعاوية بالشام حاكماً للمسلمين ، بعد خدعة التحكيم فى « صِفِّين » ، وبعد استشهاد الإمام على ، على يد أحد الخوارج الذين أضاعت الفتنة صوابهم . . ثم بعد الصلح الذى عقده معه « الحسن بن على » ليحفظ به دماء المسلمين .

استقر له الأمر ، فراح يضع فى دهاء وصبر ، أساس دولة أموية طويلة العمر ، ممتدة على الزمان .

ولسنا هنا بصدد تصويبِ أو إدانةِ موقف « معاوية » فى نزاعه مع « الإمام » . فقد فصلنا ذلك فى مُؤَلَّفاتنا – « فى رحاب عَلِيّ » ، و « وَداعاً . عثمان » ، و « أبناء الرسول فى كربلاء » . . .

لكننا نكتفى هنا ، كمدخل للموضوع ، بِرَفْضِ ودَحْض الموقف الذى وقفه « معاوية » باستخلاف ولده يزيد وأخذه البيعة له . .

هذا « اليزيد » الذى هدم بالانحلال والقسوة ما بناه أبوه بالدهاء والحلم ، والذى سَنّ للدولة الأموية على طول عهدها شريعة الغاب التى

سارت عليها وقامت بها . .

ومن عجبٍ أن هذا الذى توسَّل به « معاوية » لاستبقاء الملك فى بيت أبى سفيان . . توسَّل به القدَرُ فى الوقت نفسه لحرمان هذا البيت من الخلافة والملك إلى الأبد ، بعد أربع سنوات لا غير من استخلاف يزيد . . ! ! !

فقد مات « يزيد » بعد أعوام أربعة قضاها فى المُلك عابثاً جباراً . . ! !

وفى مرض موته خلَع المُلك على ولده « معاوية الثانى » حرصاً منه على أن تظل راية الخلافة خفاقة فوق بيت أبى سفيان ! !

لكن القدَر العظيم كان يُعِدّ مفاجأة أذهلت الدنيا ولا تَزال . .

ذلك أن « معاوية الثانى » ذلك الشاب التقىّ الورع ، جمع الناس فى يوم مشهود ، ونهض فيهم خطيباً ، فقال :

« إن جدّى معاوية نازَع الأمرَ أهلَه ومَن هو أحق به منه لقرابته من رسول الله ، وسابِقَتِه فى الإسلام ، وهو على بن أبى طالب . . ! !

« ثم تقلَّد أبى — يزيد — الأمر من بعده ، فكان غيرَ أهلٍ له . . ركب هواه وأخلَفه الأمل . . ! !

« وإن من أعظم الأمور علينا ، علمنا بسوء مُنْقلَبِه وقد قتل عِتْرَةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأباح الحرم ، وخرَّب الكعبة . . ! !

« وما أنا بالمتقلد أمرَكم ، ولا المتحمِّل تبعاتِكم . . فاختاروا لأنفسكم » . . ! ! !

وعكَف الشاب الصالح فى داره رافضاً الخلافة حتى لقى ربه راضيًا مَرْضِيًّا . . .

وهكذا ، لم يُحرَم بيت أبى سفيان آماله فى استبقاء الملك فحسب . .

بل تلقَّى وثيقة إدانة رهيبة من أحدِ بَنية الأبرار ! !

ولقد أفضى موقف « معاوية الثانى » إلى زلزال وبيل أصاب حكم الأمويين بدوار خلع أفئدة جبَّارِية من أمثال عبيد الله ابن زياد ، قاتل الشهيد المجيد « الحسين بن على » رضى الله عنه . . فرأينا ذلك الطاغية يهرب متنكراً فى ثياب امرأة حتى يُصرع فيما بعد قتيلا . . ! !

وتمزقت الدولة تمزقاً وضعها على شفَا الهاوية ، وكاد الأمر ينتهى لـ « عبد الله بن الزبير » ليستقيم به على الجادَّة ، لولا ظروف كثيرة لا مجال لتتبُّعها هنا ، هيأت لمروان بن الحكم أن يقفز إلى مِنصَّة الحكم وسط فتن مظلمة ، ومؤامرات ماكرة . .

وهكذا ، انتقل الحكم من بيت أبى سفيان ، إلى بيتٍ أموىٍّ آخر ، هو بيت مروان . .

ومَروان هذا ، صاحب تاريخ مُريب ، مُذْ كان رئيساً لديوان الخلافة فى عهد « عثمان » رضى الله عنه . .

وإن له لَمواقف كثيرة تدمغه وتدينه . .

ولقد بدأ تجربته الشّريرة هنا — فى مصر — إذْ كان والِيها يومئذ « عبد الرحمن ابن جحدم » مناصراً لعبد الله بن الزبير .

وكانت مصر حصناً يرهبه مروان ، فجاء إليها على رأس جيش هزم به عبد الرحمن بن جحدم ، ثم دعا الناس إلى بيعته طَوْعاً وكَرْهاً .

وحين احتفظ الكثير منهم ببيعتهم السابقة لابن الزُّبَيْر ، ضرب أعناق ثمانين منهم ليرهب بهم الباقين . . ! !

وفى الوقت نفسه ، أرسل عبيد الله بن زياد إلى العراقِ ، وأمره أن يستبيح الكوفة بعد فتحها . . ! !

وغدر بخالد بن يزيد الذى كان قد أقامه وليـاً لعهده . . كما غدر بعمرو بن سعيد بن الأشدق ، الذى لولا بلاؤه العسكرى ما استقر الأمر لمروان . .

وهكذا بدأت الدولة الأموية المروانية مَنهجها فى الحكم بالقهر . . . وبالغدر . . ! !

وقبل أن يموت مروان الذى لبث فى الحكم عشرة شهور . أخذ البيعة لولده « عبد الملك » ومن بعده « عبد العزيز » . أى أنه سار على نهج معاوية ، فجعلها هِرَقْلية . كلما مات هِرَقْل ، قام هرقل ! !

وينهض عبد الملك بن مروان « بالأمر » ومن بعده ولده « الوليد » . ومن بعد الوليد « سليمان » .

وخلال هذا العهد تقوم – لا سِيَّماَ فى عصر عبد الملك – إنجازات هائلة ، لا يُغمط لها قَدْر . .

لكنْ إلى جانب تلك الإنجازات ، يصيب الدولة من الفساد ، ويصيب الناس من الرعب ، ويصيب الحياة من التزييف ، ما يُشَكِّل « التركة القاتلة » التى سَيُرْزَأ بها « عمر بن عبد العزيز » حين تضع المقادير على كاهله مسئولية الخلافة .

فماذا كانت هذه التركة الرهيبة . . ؟ ؟

لقد تمثلت فى القسوة الواغِلَة التى توسَّل بها بنو مروان لتمكين سلطانهم . .

وتمثلت فى الفساد الذى غطَّى حياة الدولة وحياة الأمة معاً .

وتمثلت فى تزييف القِيم والحقائق ، مما جعل الناس يومئذ يعانون – لا فَراغاً – بل خراباً فِكريًّا رُوحيًّا مُدمِّراً . .

* * *

* فأما منهج المروانيين فى القسوة والبطش ، فيبدو واضحاً فى اصطناعهم الحجّاج ونُظَراء الحجاج .

لقد اختاره « عبد الملك » لقتال « عبد الله بن الزبير » لمجرد أنه ندَب نفسه لهذه المهمة التعسة قائلا لعبد الملك : لقد رأيتنى فى المنام أمسك بعبد الله بن الزبير ، ثم أقوم بسلخه ، فابعثنى إليه وولِّنى أمر قتاله . . ! !

وعلى الفور يبعثه عبد الملك ، ليحقق رؤياه ، وليقوم بسلخ ابن حَوَارِىِّ رسول الله . . وابن « أسماءَ » ذاتِ النِّطاقين . . والعابد القانِت الأوَّاب ... ! !

ومضى الحجاج التعس إلى غايته ، فما أبْقى على حُرمة . .

نصب المنجنيق فوق جبل أبى قُبَيس ورمى به المسجد الحرام فى الشهر الحرام ، والمسلمون يؤدون شعائر الحج ومَناسِكَه . . ! !

وتلقى مكافأته من عبد الملك الذى ولاّه على مكة والمدينة واليمن ، واليمامة . ثم نقله إلى العراق ليصبَّ عليه بطشه .

ولا يكاد يضع قدمه فوق أرضه حتى يخطب فى أهله خطبته المشهورة :

« إنى لأرى رءوساً قد أينعت وحان قِطافُها ، وإنى لَصاحِبُها . .

« ولَكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللِّحى ، قد شمّرت عن ساقها تشميراً . .

« وقسَماً بالله ، لآخذن الولىّ بذنب مولاه ، والمقيم بذنب الظّاعِن ، والمطيع بذنب العاصى ؛ حتى يلقَى الرجل أخاه ، فيقول له : انْجُ سَعْدُ . . فقد هلك سَعيد » ! ! !

انج سعد ، فقد هلك سعيد . . . ! !

هذا هو الوصف الصحيح للتركة القاتلة التى سيخلفها بنو مروان للرجل الصالح « عمر بن عبد العزيز » . .

الأقطار الإسلامية الرازحة تحت حكم الأمويين ، يُلْعَنُ من فوقها بطل الإسلام العظيم وابنه البارّ ، وإمامه الأوّاب « على بن أبى طالب » ! !

أجل . . يُفرض على الخطباء أن يلعنوه . . ومتَى . . ؟ فى خطبة الجمعة التى يَستهلُّونها قائلين : « اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد » . . آل محمد الذين يأخذ « علىٌّ » فيهم مكان الدُّرَّة الفريدة فى العِقد المنظوم . . . ! ! ! أهناك تزييف للقِيَم ، بل إلغاء للمنطق وكرامة العقل أكثر من هذا ...؟؟ ! !

على أن هذا التزييف للحق وللحقيقة ، قام على أكتاف الشعر . والشعراء الذين تولَّوا كِبْره ، واحتملوا وِزره . . ولعل هذا يُفسّر لنا الموقف الذى سيتخذه منهم « عمر بن عبد العزيز » حين يحمل مسئولية الخلافة ، فلسوف نراه يطردهم عن بابه ، ويحرمهم العطاء الغَدَق الذى كانوا يتقاضونه من أموال المسلمين ثمناً لكذبهم ونفاقهم . .

لقد كان لكل بلاط شعراؤه . . ولكل وال وأمير مَادِحُوه . .

ولقد أوضحنا على صفحات سابقة ، كيف كان الشعر ثقافة العصر ولُغتَه ، وإلى أى حد كان شغف الناس وإقبالهم عليه عظيماً .

ومن ثمَّ ، فإن الخليفة الذى كان يريد أن يُجرِّع الأمة أكذوبة أو يُنْسيها حقًّا ، لم يكن يجد وسيلة لذلك أفضل من الشعر .

وإنّ رجلا كمعاوية فى دهائه العظيم ، لا يجد فى ذلك الدهاء غناء عن الشعر حين همَّ بأخذ البيعة ليزيد ، فأوحى لشاعره الخاص أن يُعدّ قصيدة لهذا الغرض ، ينشدها فى جموع الناس الذين سيحشدهم معاوية ، فى ميقات معلوم .

وفى ذلك الميقات ، يجتمع وجهاء الشام فى قصر الخليفة . وهم لا يعرفون لماذا دُعوا . . ؟ ولا لماذا اجتمعوا . . ؟ ويقف شاعر معاوية ؛ ليقول :

ألا ليت شعرى ما يقول ابن عامر
ومروانُ ، أم ماذا يقول سعيد
بَنِي خُلفاء الله مهلا ، فإنما
يُبوِّئُها الرحمن حيث يريد
إذَا المنبر الغربَى خلاَّه ربُّه فإن أمير المؤمنين « يزيد »

ولا يكاد يفرغ من إلقاء قصيدته ، حتى يتظاهر معاوية الداهية بأنه فوجىء بما سمع ، فيفرك كفيه ، ويقول فى مكر شديد وهو يوجه الحديث إلى شاعره .

« سننظر فيما قلت ، ونستخير الله ! ! »

* * *

وحين يحاول « عبد الملك بن مروان » تبرير مذابح وُلاته وقواده ضد الشِّيعَة ، والخوارج ، وأنصار عبد الله بن الزبير ، يستنجد بشاعره « جرير » .

لولا الخليفة ، والقرآن يقرؤه ما قام للناس أحكام ولا جُمَعُ
أنت الأمين ، أمين الله لا سَرف فيما وليت ولا هيَّابة خَرِع
يا آل مروانَ إن الله فضلكم فضلا عظيماً على مَن دِينُهُ البِدعُ

وهكذا تنقلب الأوضاع . كما يريد شيطان جرير . . فعبد الملك ابن مروان إمام الهدى ، وعبد الله بن الزبير [دينهُ بِدَع ! ! !] .

* * *

وحين يرث الوليد أباه فى المُلك ، يهتف بالشعر ليشد أزره ، وليُجرِّع الناسَ سلطانه ، فيتقدم « جرير » أيضاً .

إن الوليد هو الإمام المصطفى بالنصر هُـزَّ لواؤه والمغنِم
ذو العرش قدّرَ أن تكون خليفة مُلِّكتَ فاعْلُ على المنابر واسْلَم

وهكذا صار الوليد إماماً مصطفى ، وصارت خلافته قدَراً من الله ونعمة ورحمة ! !

* * *

وكما اعتمد الخلفاء على الشعر فى ترويج باطلهم والتمكين لأنفسهم ، راح وُلاتهم وقادتهم يُحاكونهم ويقلدونهم .

فزياد بن أبيه يتوجه شاعره بالقصائد الكثيرة ، حيث يقول فى بعضها :

تقاسَمتِ الرجال به هـواها فما تُخْفى ضَغائنَها الصدور
فلمـا قام سيف الله فيهم « زياد » ، قام أَبلـج مستنير

والحجاج ، هل ينسى نصيبه الأوفى فى هذه الولائم الباذخة الكاذبة ؟؟.

إنه يدرك أن جرائمه تتعاظم كل دِثار يُغطيها ويُخفيها . . هنالك يلجأ إلى بَطلىِ الثالوث الأموى . جرير ، والفرزدق . .

[فهذا جرير يُجرِّع الناس قوله :

إن ابن يوسف فاعلموا وتيقّنوا ماضى البصيرة واضح المنهاج

وينافسه الفرزدق الذى يكتشف للحجاج من المناقب مالا يعرفه الحجاج عن نفسه ، ولا يُصدقه . . ! !

ولم أرَ كالحجاج عوناً على التُّقى ولا طالبـاً يوماً طريدة نابل
بسيف به لله يضرب من عصى على قِصر الأعناق فوق الكواهل

وتتفتح شهية الحجاج . فلا يشبعه زيف الفرزدق وجرير ، فيهتف بأعشى همدان الذى يتقدم بدوره ليجعل منه قديساً ومُنقذاً . . ! !

أبى الله إلا أن يتمم نـــوره ويطفىء نار الفاسقين فتخمدا
ويــنزل ذلا بالعــراق وأهــله لِمَا نقضوا العهد الوثيق المؤكَّدا
فقتــلاهمو قتلىَ ضــلال وفتنة وحَيُّهمــو أمسى ذليلا مُطرَّدا

* * *

هكذا استُخدم الشعر أسوأ استخدام لتزييف الصدق والخير ولطمس الحقيقة فى وجدان الناس ووعيهم ، ولإثارة البلبلة فى خواطرهم ، وتوهِين علاقاتهم بالقيم والأخلاق .

فماذا يربط الناس بالقِيم بعد . . حين يرون قواد الوليد بن عبد الملك . يملأون الأرض دماً وعذاباً ، ثم تتردد فى المحافل قصيدة شاعره « عدى ابن الرقاع » :

صــلى الذى الصــلوات الطيبــاتُ له
والمؤمنـــون إذا مـا جمَّعــوا الجُمَعــا
إن الوليـــد أمــير المـؤمنين له
مُلْكٌ عليه أعــان الله فارتفعــا

وماذا يربط الناسَ بالقِيم حين يرون خليفتهم – عبد الملك بن مروان – يصطفى لنفسه الأخطل ، وهو يذكُر هجاءه المُقذع السافل للأنصار الذين بَوَّأهم القرآن والرسول مكاناً عليًّا . . ؟؟

لقد فقد الناس إيمانهم بأشياء كثيرة ، ووقعوا فى تيهٍ مظلم بين ما يبصرون وما يسمعون ، وتحطمت أعصابهم تحت وطأة الكذب ، والزيف ؛ والبهتان .

لقد رأوا الأبرار يُذَبَّحون ويُقَتَّلون والسِّفلة يرتفعون ! !

وتاهَتْ فى الزحام أصوات القِلَّة المؤمنة الورِعة — أمثال « الحسن البصرى » وإخوانه ؛ ففقدت العقيدة سلطانها ، وعاد الإسلام غريباً ؛ أو كالغريب . . ! !

وكما كان « الحُنَفاء » فى الجاهلية يُقلِّبون وجوههم فى السماء ويَهيمون بين الجبال باحثين عن النبي المنتظر ، يخرجهم من الظلمات إلى النور — راح الحُنَفاء ؛ والمظلومون ؛ والمقهورون فى ذلك العهد الأموى يتطلعون إلى السماء فى انتظار النجم الذى يُجدد الله به دينه . . والذى يردُّ للخلافة كرامتها وَقدرَها ، ويضع عن الناس إِصْرَهُم ، والأغلال التى كانت عليهم . .

صحيح أن التركة قاتلة ؛ والميراث رهيب ؛ ولكن عونَ الله واصطفاءه كافيان لجعل العُسْر يُسراً . . .

* * *

لقد كان الأمر بحاجة إلى معجزة . .

ويَمينُ الله مَلْآى بالمعجزات . .

أفما آن للمتعَبين أن يظفروا منها بواحدة..؟؟

بلى ؛ آن . .

وإن رحمة الله لَواسعة . .

وإن عطاءه لجَزيل . .

الفصل الخامس

البُشرى

[والله لأَعقِدنّ عقداً ،
لا يكون للشيطان فيه نصيب]..!



ونعود من جديد لصحبة الرجل الصالح – عمر بن عبد العزيز – . . لِنصاحب الجهد الخارق الذى سيكون على البطل أن يبذله حتى يجعل من الظلمات نوراً . .

ها هى ذى الخلافة تقترب منه . .

أتراه يطمع فيها ، أو يريدها . . ؟

كلا . إنه ليس له فيها مطمع ، فسليمان بن عبد الملك كان له أولاده . . ومن عادة خلفاء بنى أمية إيثار أولادهم بالاستخلاف .

فعَل ذلك « معاوية » حين جعل الحكم ليزيد . . وفعله « يزيد » حين استخلف معاوية الثانى . . ثم فعله مروان حين استخلف ولده « عبد الملك » ، وفعله عبد الملك حين نَحَّى أخاه « عبد العزيز » ، وأخذ البيعة لولده الوليد . .

كذلك لم يكن يريد الخلافة ، إذ كانت بما تورطت فيه ، قد صارت عبئاً مُبهظاً على كل ذى تُقًى وضمير . . وكانت قَداسة روحه التوّاقة إلى مرضاة ربها قد أخذت تنأى به شيئاً فشيئاً عن كل مغانم الحياة وزخرفها .

وكان ثَمّة حادث وقع فى أثناء ولايته على الحجاز ، ترك فى نفسه فزعاً شديداً من السلطة والسلطان ، وعاش عمره كله يُغَصّ بمرارته ، ويعجب كيف غُلِب فيه على أمره وتُقاه ! !

أما الحادث ، فخلاصته أنه تلقى كتاباً من الخليفة الوليد يتهم فيه « خُبَيْب بن عبد الله بن الزبير » بالتحريض على الأمويين والتشهير بهم ، ويأمره بضربه . .

وقام « عمر » بضرب خبيب ضرباً أفضى إلى موته .

وحين أبلغوا« عمر » نبأ موته ، نزل الخبر عليه كالصاعقة بل كأنها السماء انفطَرت ، والكواكب انتثرت ، والقيامة قامت . . ! !

وغشّاه الحادث بحزن قاتل ، فأغلق على نفسه باب داره سبعين يوماً – لاَبِساً مُسوحاً سُوداً ، ضارعاً إلى الله أن يغفر له ويعفو عنه . .

وكشف له هذا الحادث – كما قلنا – عن خطر السلطة والإمارة ، وتذكر قول الرسول عنها .

« إنها نِعْمَتِ المرضعة »

« وبِئست الفاطمة » ! ! !

وقوله عليه السلام :

« إنها فى الدنيا إمارة ، وإنها يوم القيامة خزى وندامة إلاّ من أخذها بحقها ، وأدَّى الذى عليه فيها » . . ! !

رأى كيف وهو يتحرَّى العدل والرحمة أعظم التحرِّى ، قد ورطته السلطة فى بعض آثامها . .

ولسوف يقضى العمر كله يرزح تحت وقع الندم ، لا تزُايل خيالَه صورة ضحيته ، حتى حين يصير خليفة للمسلمين ، ويأتى من معجزات

العدل والورع والتُّقَى ما يبدو أبعد من الأساطير . . حتى حينذاك ، لا ينسى ذلك الحادث الوحيد الذى وقع ضد إرادته وضد طبيعته . .

أجل . . سنراه وهو خليفة يطيل البكاء ، فيقول له حَوارِيُّوه المقربون :

فيم بكاؤك . وقد وفقك الله لعمل أهل الجنة . . . ؟

فتزداد دموعه انهماراً ويقول :

« وكيف بخُبَيْب ؟ ؟ وكيف بِخُبيب ؟ ؟ »

ثم يصيح كالثَّكْلَى :

« إن نجوتُ من خُبيب ، فأنا بخير » . . ! !

لم يكن إذن يطمع فى الخلافة ولا يريدها .

ولقد آثر أن يحيا مع نفسه يزودها بزاد التقوى ، ويهيئها للقاء الله يوم تلقاه على خير حال ، وأهدَى سبيل . .

وفى هذه الفترة من حياته ، نجد نفسه التوَّاقة تغير مَسارها فتأخذ فى العزوف شيئاً فشيئاً عن الإغراق فى التأنق ، وتتخفف من المناعم والطيبات ، وتَشْغَفُ بالعزلة والتأمل العميق . . ثم نراه يحصر علاقاته المحدودة فى نفرٍ كريمٍ من العُبَّاد والعلماء والزهاد .

وخلال ذلك تتوثق صلته بـ « رجاء بن حَيْوَة » وكان من علماء التابعين وفُضلائهم ، وكان موضع ثقة الخلفاء الأمويين . عاش معهم دون أن يفقد فضائل نفسه . .

و « رجاء بن حيْوة » شخصية جليلة ، لانملك ونحن نتحدث عن أمير المؤمنين « عمر بن عبد العزيز » إلا أن ننحنى له تحية وتقديراً ؛ فلقد اختارته المقادير — كما سنرى فيما بعد — ليكون السبب الأول والأوثق فى إفضاء الخلافة لابن عبد العزيز حيث سترى الدنيا منه معجزة الحكم الورِع

العادل الطَّهور . . ! !

فسلام الله ورحمته عليك يا رَجاء . .

* * *

إن العزلة التى أخذت نفس – عمر – تجنح لها ، لم تَسْلَخه عن عالمه ولم تُنْسِه إحساسه بمشاكل دولته وأمته ، ولم تحمله على نفض يديه من مسئولية التحذير .

ففى هذه الفترة نراه ومعه شيخه وصديقه « رجاء بن حيوة » لا يَكُفَّان عن قرْع أجراس الخطر ، وإسداء النصح للخليفة سليمان .

لقد كان غياب العدل والرحمة عن دولة الأمويين ، أكثر ما ينغّص نفس « عمر » . .

من أجل ذلك صارت كلمتى « العدل والرحمة » تسبيحة عَذْبة على لسانه ، يلهج بها دوماً ، ويَصُبُّها فى أسماع الخليفة صَبًّا . .

* * *

وذات يوم ؛ طاف بالخليفة « سليمان » طائف المرض . . وكان قبل مرضه قد عقد ولاية عهده لولده « أيوب » ولكن « أيوب » كما يحدثنا ابن عبد الحكم مات ، فصارت ولاية العهد شاغرة . .

فلما مرض « سليمان » وشعر أنه مرض الموت ، شغله أمر الخلافة .

وتفرَّس وجوه بنيه ، فألفاهم صغاراً . . فأمر أن يُلبسوهم أَقمِصة الخلافة وأردِيتها ، ويقلدوهم السيوف ليرى – على الطبيعة – كيف يكونون . . ؟ !

وجيء بهم إليه مُزركشين بثياب الخلافة ، مُتوشِّحين سيوفها ، فوجدهم

لا يملأون جانب العين . . فقال آسفاً :

إن بَنِيَّ صِبية صِغار أفلح من كان له كِبار .

وخلا بمشيره الأمين « رجاء بن حَيْوة » ، وراح يقلب معه وجوه النظر ، فقال له رجاء :

«إن مما يحفظك فى قبرك ، ويشفع لك فى أخراك ، أن تستخلف على المسلمين رجلا صالحاً » . .

قال سليمان : ومن عساه يكون . . ؟

وأجاب رجاء : [عمر بن عبد العزيز] . . ! !

وتلقى « سليمان » مَشورة رجاء كالبُشرى ، فقد صادفتْ هوى فى نفسه ، بل صادفت عزماً كان يضمره ويُخفيه . .

وهتف سليمان بعبارته المأثورة الباهرة :

« والله ، لأعْقِدَنَّ لهم عقداً لا يكون للشيطان فيه نصيب » ! ! !

لكن كيف السبيل إلى ذلك وإخوة سليمان قابعون كالنمور ، واقفون للمنصب بالمرصاد . . ؟

هنالك اهتدى « سليمان » إلى الحل ، وهو أن يوصِى لإخوته بولاية العهد بعد « عمر بن عبد العزيز » . .

وسارع « رجاء » لإنجاز الخُطَّة . . وكتب مع الخليفة وصيته .

« بسم الله الرحمن الرحيم . .

« هذا كتاب من عبد الله سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين ، لعمر بن عبد العزيز . .

« إنى قد ولَّيته الخلافة من بعدى . . ومن بعده . . يزيد ابن عبد الملك . .

« فاسمعوا له وأطيعوا ، واتقوا الله . .

« ولا تختلفوا فيُطمعَ فيكم . . »

هكذا تمت الخطوة الأولى نحو استخلاف « عمر » وسُطِّر العقد الذى لن يكون للشيطان فيه نصيب ! !

* * *

وسارع « رجاء » إلى الخطوة التالية ، فدعا الأمراء الأمويين لمقابلة الخليفة ، وكان كتاب الخليفة قد طُوى وخُتِم ، وتَواصَى الخليفة ورجاء ألا يعلم بمضمونه أحد ما دام الخليفة حيًّا . .

واحتشد الأمراء حوله ، وأمرهم « سليمان » أن يبايعوا من استخلَفه واستودَع الوثيقة اسمه . . وحاول بعضهم أن يعرف قبل أن يُبايع ، لمن أوصى الخليفة ، فزجره سليمان ؛ فبايعوا جميعاً ، ثم انصرفوا يتبادلون الحدْس والظنون . . .

* * *

أين كان « ابن عبد العزيز » والأمر يُقضَى ويُبرَم . . ؟ ؟

لقد كان يعود « سليمان » يوماً ، فاستقبله قائلا :

— « يا عمر » . .

« ما أهمَّنى أمر قط ، إلا خطَرْتَ فيه ببالى » . .

ومن ذلك اليوم ، وهو يُحِسّ شعوراً مُبهماً فى نفسه . شعور التوجس من أن يصنعها سليمان من وراء ظهره ، ويَرزَأه بمسئوليات الخلافة . .

هنا لك ، يسارع إلى حيث يلتقى برجاء بن حَيْوة ، ويقول له متوسلا :

« يا رجاء : .

« إنى أرى أمير المؤمنين فى الموت ، ولا أحسبه إلا سيَعْهَد . .
« وإنى أناشدك الله إذا ذكَرنى بشىء من ذلك أن تصرفه عنى . .
وإن لم يذكرنى ألاّ تذكُرنى له فى هذا الأمر أبداً » . .

وكان علَى « رجاء » أن يستخدم ذكاءه فى انتزاع هذا الإحساس من نفس « عمر » ، فهو يعلم أنه إذا تحول شعوره هذا إلى مجرد ظن قوىّ بأن الخليفة عهد إليه ، فسيسعى إلى الخليفة معتذراً ومُتنصِّلا . . بل ربما غادر البلاد كلها إلى حيث لا يُعرف له مقر أو مقام . . .

من أجل ذلك أدّى « رجاء » دوره بدهاء عظيم حين أجاب « عمر » قائلا :

« لقد ذهب ظنك مذهباً بعيداً ، ما كنتُ أَحسَبُك تذهب إليه . .
« أتظن بنى عبد الملك يُدخلونك فى أمورهم » ؟ !

وتَهلَّلَ وجه عمر . . وانصرف عن رجاء . . الذى تهلَّل وجهه هو الآخر ، وراح يفرك كفيه مغتبطاً مسروراً ، فقد ربح الجولة الأولى مع الهارب من الملك والمجد والخلافة . . ! ! !

* * *

وذهب إليه « هشام بن عبد الملك » أخو الخليفة سليمان ؛ وكان يتطلع إلى المنصب فى رغبة ضارية . .

قال لرجاء : [يا رجاء . إن لى معك حُرمة ومَودّة ، فأنبئنى بهذا الأمر . إن كان صائراً إلىّ علمت . . وإن كان لغيرى تكلمت . . ولك علىّ العهد ألا أذكر من ذلك شيئاً أبداً] . .

وكان جواب الشيخ الجليل له : أن الخليفة قد ائتمنه وأخذ عليه العهد ألا يتكلم . .

وانصرف عنه « هشام » حَيرانَ أسِفاً ، يسائل نفسه :

« إذا كنت قد نُحِّيتُ عنها . فإلى من يا ترى ؟ وهل ستخرج الخلافة من بنى عبد الملك ؟ . . ؟؟ » .

* * *

ويذهب « رجاء » ذات يوم ليعود الخليفة ، فيجده فى اللحظات الأخيرة من حياته ، فيجلس إلى جواره حتى تفيض روحه فيُسَجِّيه . . ويتكتم النبأ فى ثبات وطيد ، مُهَيِّئاً الظروف لإعلان الخليفة الجديد ، زافًّا مع إعلانه هذا أعظم البشريات لدين الله ؛ ولدنيا الناس . . . ! ! !

ولْنُصْغ إليه يكمل النبأ ويصف المشهد :

« . . . وخرجت ؛ فأرسلت إلى كعب بن حامد العبسى – رئيس الشرطة – ليجمع أهل بيت أمير المؤمنين . .

« فاجتمعوا فى مسجد « دابِق » فقلت لهم : بايعوا . .

« قالوا : قد بايَعْنا مرة ؛ أنبايع أخرى . . ؟ ؟

« قلت لهم : هذه رغبة أمير المؤمنين ؛ فبايعوا على مَن عَهِد إليه فى هذا الكتاب المختوم . .

« فبايَعوا رجُلا ؛ رجلا . .

« فلما بايعوا رأيت أنى قد أحكمتُ الأمر ؛ فقلت لهم : إن الخليفة قد مات . .

« ومضيت أقرأ عليهم الكتاب » . . . !

* * *

إنه ما دام النظام المعمول به فى منهج الأمويين هو الاستخلاف ؛ فإن العمل الذى أنجزه « رجاء بن حَيوة » لعَظيم جدّ عظيم . فالرجل الذى اختِير للخلافة هذه المرة ؛ ليس ثمة مِن طرازه سِواه . . . إنه رجل . لو أن أروع ما عرف التاريخ الإنسانى كله من ديمقراطية وشُورَى أراد أن يختار له نظيراً لأعياه وجودُ النظير . . ! !

ومع ذلك ، فسوف نراه عما قريب ؛ ينتهز أول فرصة مُواتية ليحاول خَلْع الخلافة من عُنُقِه ، وليرد الأمر إلى المسلمين يختارونَ مَن يشاءون . . ! !

* * *

رأينا كيف بايعه الأمراء الأمويون بعد أن فاجأهم كتاب الخليفة الذى قرأه عليهم رجاء . .

وكان هشام . . فيمن بايع على مضَض . . إذ تقدم من « عمر » وهو يقول :

[إنا لله وإنا إليه راجعون ، إذْ نُحيِّتْ عنى : !]

فأجابه « عمر » :

« بل ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، إذ صارتْ إلى ، وأنا لها كارِه » ! ! .

ولم يكد يُفيق من غمرة المفاجأة ، حتى راح يَرتجف كعصفور غطّته الثلوج ، واستقبل « رجاء بن حيوة » يقول له فى عتاب :

« ألم أُناشِدْك الله ، يا رجاء » . . ؟ !

ثم سار إلى الخليفة المسجّى ؛ فصلّى عليه ، وشيّعوه إلى مَثواه . .

وعاد يُعزِّى أهل بيته فيه ، ويتلقى فيه العزاء .

وفى الغَداة ، وكان النبأ قد طار إلى كثير من بلاد الشام حيث سارع

خلْق كثيرون إلى « دابق » . . دخل أمير المؤمنين المسجد فإذا هو غاصٌّ بحشود هائلة من الوافدين ، فرأى الخليفة أنها فرصته للخلاص من المنصب الكبير قبل أن يتشبث بكاهله .

وفجأة صعد المنبر ، وخطب الناس :

« . . أما بعد ، فقد ابتُليت بهذا الأمر على غير رأى منى فيه ، وعلى غير مَشورة من المسلمين . .

« وإنى أخلع بيعةَ من بايعنى فاختاروا لأنفسكم » . . ! !

ولعله قدَّر أن المفاجأة ستُذهِل الناس ، فتعقِد ألسنتهم عن الكلام ولو لحظات . يستطيع هو خلالها أن ينجو بنفسه ، مبرراً صمتهم بقبول تنازله . . !

بيد أنه لم يكد يفرغ من نُطق هذه العبارة : [فاختاروا لأنفسكم] حتى كان المسجد يهتز بدَمْدَمَة رهيبة ، أطلقتها الحناجر الصائحة الصادحة :

« . . بلْ إياك نختار ، يا أمير المؤمنين » . . ! !

واندفعت الجموع التى بداخل المسجد ، والجموع التى كانت خارجه ، صَوب المنبر الذى كادت تَصهره أنفاسهم الحارة . .

وهبط دَرَجَ المنبر ، محاولا أن يجد له وسط الجموع طريقاً .

كانت أصواتهم الصادعة المُبايعة ، قد حولت المناسبة إلى مِهرجان . .

وراحت أذرعتهم المشرعة تُلوِّح وتَخفُق ، كأنها الرايات الظافرة ، وعيونهم المغتبطة ، تبرق بفرحة العمر وبهجة الحياة . .

وراح – هو – يُجهش بالبكاء . . . ! !

الفصل السادس

المعجِزة

. . [بل جَزَى الله الإسلامَ عنى خيراً] ! !



نحن الآن أمام رجل جديد ، مُغايرٍ تماماً لهذا الذى كنا معه عَبْرَ الصفحات السالفة من الكتاب . .

فكيف ظهر هذا الرجل فجأة . . ؟ !

كيف بَزغ على نحوٍ مُباغِتٍ ، ومن أين جاء . . ؟ ؟

* أكان القدَر يصنعه على عينيه . ليقدم به مُحيًّا باهراً للفضيلة والخير ، فى دنيا كادت تُجدب من الفضيلة والخير . . ؟

* أكان روح الإسلام يعمل فى مُثابرة غير منظورة ؛ ليثبت أنه لا يزال يُنجب من أبنائه البررَة ورجاله الشاهقين المعجِزين ، ما حَسِب الناس أن زمانهم ولَّى ودرس . . ؟

* أكان الضمير الإنسانى قد أقلقه غياب القدوة الصالحة ، وإجداب الوجدان البشرى منها ، فراح يبحث عن أقوى الناس ليحقق به وفيه ظُهورَها وتَجلِّيها ، ولِيُذكِّر الطموح البشرى بطريق القداسة . . ؟

* أكانت الحقيقة قد سَئِمت عبقرية التنظيم والمعرفة والإدارة ، تعمل

وحدها ، فراحت تهيب بعبقرية الروح كى تملأ الفراغ الموحِش ، وتروى برهبانيتها الناشطة وبتبتُّلِها النبيل عقلَ الحياة . . ؟

* أكانت فضائله الكامنة تنمو داخل نفسه نمواً غير منظور ، وتحتشد فى تركيزٍ هائل ، لِتفجِّر فى ميقات معلوم طاقتها الجبارة . . ؟

ألاً إن ذلك كلَّه قد كان . .

وبهذا كله ، ومن أجل هذا كله ، جاء إلى الحياة هذا الرجل الجديد ، والزائر الجليل – عُمر الخليفة – فى رحلة سريعة لن تلبث إلا عامين ، وخمسة أشهر ، وبضعة أيام . . ! ! !

* * *

ولو أن هذا الخليفة كان قبل الخلافة واحداً من عامة الناس . .

ولو أن البيئة التى قضى فيها طفولته وشبابه ورجولته كانت مألوفة بين البيئات . .

ولو أن الزمن الذى استغرقه انقلابه الروحى المذهل ، امتدَّ على طريقِ تطورٍ طويل أو حتى قصير . .

ولو أن السبب المباشر لهذا الانقلاب كان شيئاً آخر غير المنصب الذى يُشعِل الطموح ويَفتح الشهيَّات.

لو أن ذلك كان كذلك ، لَتيسَّر لنا تصور الإعجاز الذى حدث . .

أمَا والأمر مختلف عن هذا كله ، فإن ذلك الإعجاز يبقى – وإلى الأبد – سرًّا جليلا يتحدَّى كل إدراك . . !

* فبطل الانقلاب الروحى الذى سنطالع الآن صورته الخارقة ؛ لم يكن من أوساط الناس فى معيشته ورزقه ؛ فيُقال : إن زهده وورعه

كانا إمتداداً لمعاناةِ تجاربه . . بل هو منذ مولده إلى استخلافه ربيب الملك ؛ وحفيد المجد ، وابن القصور الناعمة ، والمباهج الهاطلة . . ! !

* وهو لم يكن حين تَسنَّم الخلافة شيخاً تقدمت به السن ، فيُقال : إن استغناءه عن نفوذها وجاهها ونعيمها إنما هو مظهر لحياة شبعت من النعيم والجاه حتى بَشِمَتْ . وأعراض شيخوخه وَلَّى عنها وَلَعُ الشباب وطموحه . . بل إن البطل والقِدِّيس كان يوم استخلافه فى رائعة الرجولة والاقتدار والطموح . . لقد كان فى الخامسة والثلاثين من عمره . . .! !

* وهو لم يستغرق فى انقلابه الروحى الهائل والمفاجىء سنين ولا شهوراً ، بل جاء كما سنرى ابن اللحظة التى اختير فيها أميراً للمؤمنين . . ! !

* ولم يكن وراء هذا الانقلاب الروحى يأس من غاية أرهقَتْ طموحه . ولا هزيمة فى الحياة راح يلتمِس عِوضاً عنها وبديلا لها ، ولا ردُّ فعل لإفراط قديم فى شهوات النفس ، ولذاذات الجسد ، ولا نوبة صلاح وتُقىً دفعت به إلى صوامع العابدين ، ولا نزعة تشاؤم ترى العدَمَ وراء الأشياء ؛ فتلوذ باللاّمُبالاة ، صائحة : الكُلُّ باطل . .

بل كان وراء انقلابه الروحى شىء هو أبعد ما يكون عن النتائج التى أفضى إليها . . أجلْ ، كان هناك منصب الخلافة « وصَوْلجان الملك لأَعظمِ ، وأقوى ، وأوسع امبراطوريات عصرها وزمانها . . ! ! !

وفى هذا – قبل أى اعتبار آخر – تتراءى قدَاسَةُ هذا الانقلاب المفاجىء الجليل ، وتتمثل المعجزة كلها . . ! !

* * *

ونحن نصف هذا الانقلاب ، بالمفاجىء ، لأنه كان كذلك فعلا

فمع أن حياة – عمر – كانت منذ طفولته طاهرة فاضلة نَـزَّاعة إلى المزيد من الصلاح والتقى . .

ومع أنه بعد عزله عن ولاية الشام أيام الوليد بن عبد الملك عكَف على تنمية فضائله وتزكية نفسه ، وشرع يُخفف من غُلَواء تأنُّقه وتَنعُّمه . . فإنه لا هذا ولا ذاك ولا أضعافهما معهما لا شيء من هذا كله بقادر على إقناعنا بأنه كان مقدمة لذلك الانقلاب الفذّ الذى تفوّق حتى على ذاته ، والذى تقمَّص شخصية الخليفة فى اللحظة التى جرى فيها رِيقُه بالمَذاق الرهيب – لا الرَّطيب – لمسئولية الحكم والخلافة . . ! !

* * *

لا ريب فى أن اصطفاءَ الله وتوفيقَه ، يقفان قبل كل سبب ودافع وراء المعجزة . .

فالله سبحانه على كل شيء قدير . . وهو – سبحانه – أعلم حيث يجعل رسالته ، وأعلم حيث يضع سِرَّه وبَركَته . .

لكنْ إذا ذهبنا نلتمس للمعجزة سبباً ودافعاً مما يدخل فى حَوْزَتنا ويُشكّل حياتنا ، كبشَرٍ مختارين ، ومسئولين . . نُفكّرِ ، ونُقدِّر ، ونسعى ، ونختار ، ونريد ، فأين نجد هذا الدفع يا تُرى . . ؟ إنه – فى رأينا – مستقر فى معنى واحد ، ذلكم هو طريقة ابن عبد العزْيز فى فهم « مسئولية الحكم » ، وإحساسه بها ، وتقديسه لها . .

فكل شيء داخِلَ شخصيته ، وخارج شخصيته ، يتغير فى إنجاز خاطف تحت ضغط هذه المسئولية وحدها . . ! !

و « هو » الآن . . ليس « هو » الذى كان . . ! !

والدولة ، والأمة ، والحياة كلها . تجاوز أوضاعها السابقة فى مثل لمح البصر ، إلى أوضاع أخرى تعكسها عظمة الخليفة وقَداسته . .

ثم إن ارتباط هذه المسئولية فى ضميره بالله ارتباطاً وثيقاً ومُباشِراً يدعوه أن يقهر الزمن لمشيئة التغيير . .

فهو لا يصبر يوماً ، ولا ساعة على خطأ قديم ، لأن الله سائله لماذا ترك هذا الخطأ ساعةً من نهار ؟ ولأنه لا يضمن لنفسه الحياة إلى الساعة التالية . .

ومن ثَمّ فلا وقت للإرجاء . . ! !

والآن ، فلننظر ! ! . . .

* * *

ها هو ذا يعود من دَفن سلَفِه « سليمان بن عبد الملك » فلا يكاد يستقر به المقام فى مجلس العزاء حتى يطلب إلى مولاه « مُزاحِم » أن يسارع إليه بقرطاس ، وقلم ، ودواة . .

ويقترب منه « رجاء بن حَيْوة » وقد رأى جسده ينتفض ، كأنّ به رعدة مرض ثقيل ، وينصحه بإرجاء ما يريد إنجازه الآن إلى غد ، حتى يستريح . .

لكنه يجيبه ، ودموعه تَنْثَالُ من مآقِيه :

« لقد فعلْتَها يا رجاء . . .

. . فدعْنى أسْتَنْقِذُ نفسى من عذاب يوم عظيم ؟ ! !

إنها المسئولية الموصولة بالله ، وبما لله فى نفس عمر من عظمة ، ورهبة ، وجلال . .

أجل . . إنها هى ، لن تَدعَه ينعم ، ولن تتركه ينام . . ! !

ويجىء « مُزاحم » بالقرطاس ، وبالقلم ، وبالدواة . . ويختطفها الخليفة

منه فى لهفة من يختطف حياته ومصيره من فُوَّهة إعصار . . ويروح يكتب على عجل :

* إلى مسلمة بن عبد الملك ، ليعود بجيشه من القسطنطينية . .

* وإلى أسامة التنوخى . يخبره بعزله عن خَراج مصر ، ويدعوه ليقدم حسابه . .

* وإلى يزيد بن أبى مسلم ، يخبره بعزله عن أفريقيا ، ويدعوه ليقدم حسابه . .

وأمر أن تُحمل الكتب فوراً إلى أصحابها . .

وبُهت الأمراء الأمويون لما رأوا . وتهامس بعضهم معلقاً على هذا المشهد الذى أثار عجبهم وحَنَقهم معاً ؛ فقال :

[إنه الولَع بالسلطان ، لا يَدعُه يصبر حتى الصباح] ! !

مساكين . . ! ! فقد كانوا أعجز من أن يبصروا رُوح القَداسة التى بدأت تعمل داخل ضمير الرجل الذى لم يجد فى منصب الخلافة الذى يتكالبون عليه سوى رُزْءٍ رهيب . . ! !

وإن عجلته الحازمة فى البدء بهذا الثالوث ، لتكشف لنا طَرَفاً من ولائه الوثيق لمسئولية الحكم . ومنهجه فى تحمل هذه المسئولية . .

* فأما « مسلمة بن عبد الملك » فقد كان على رأس جيش كبير يحاصر القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية . . وكاد الحصار يُؤتى أكله ويفتح أبواب العاصمة ، لولا خدعة ورطه فيها القائد الرومانى « اليون » فردّت القوةَ عجزاً ، والنصر هزيمة . . وعلى الرغم من ضياع الفرصة ، وانقطاع خطوط التموين وتفشّى المرض والمجاعة فى الجيش ، فإن الخليفة السابق « سليمان بن عبد الملك » رفض أن يصدر أمره للجيش بالعودة ،

ربما تحت وطأة كبريائه الشخصى والقومى ؛ وربما أملا فى تحسُّن ظروفه وإمداده بقوات جديدة - وهكذا تُرك الجيش المتداعى فريسة للضياع . .

ولقد كان - عمر بن عبد العزيز - قبل استخلافه يتَميَّز غيظاً من هذا الموقف ، ويُلح على الخليفة باستدعائه . ولكن لَا رأى لمن لا يُطاع . .

والآن ، وقد صار الأمر إليه ، فإنه لا يطيق صبراً ، ولا يُرجىء أمر الانسحاب إلى الصباح . بل يبدأ بإصداره وبإرسال الرّسُل به فى أولى ساعات خلافته ومسئوليته - هذه الأولى . .

* فأما الثانية ، وهى عزل أسامة التنوخى عن خراج مصر ؛ فقد كان أسامة هذا - كما يصفه ابن عبد الحكم - [غاشماً ، ظلوماً ، مسرفاً فى العقوبات بغير ما أنزل الله ؛ يقطع الأيدى ؛ ويملأ أجواف الدواب بأشلاء ضحاياه ؛ ثم يطرحها للتماسيح] ! ! !

أفهذا طراز يسكت عنه ابن عبد العزيز طَرْفة عين . . ؟ ؟

لطالما نصح الخليفة السابق بوجوب عزله . .

والآن وقد صار الأمر إليه ، فإنه لا يَدَعُه فى مقامه لحظة ، فقد يَبْتُر فى هذه اللحظة يداً تجى يوم القيامة مُعلّقةً فى عُنق « عمر » - تقول : يارب : لقد قُطِعتُ بغياً وعُدواناً فى عهد هذا الخليفة . . ! !

* وأما الثالثة ، وهى عزل « يزيد بن أبى مسلم » عن أفريقية ، فقد كان هو الآخر طاغية متجبراً ، يعامل الناس بوحشية مسعورة ويتسلَّى برؤيتهم وهم يُعذَّبون ويذوقون نكالَه . . .

* * *

هكذا بدأ الخليفة عهده . . بالتغيير السريع الحاسم العميم الذى

بعد قليل ، ينتقل أمير المؤمنين إلى « دمشق » عاصمة الخلافة الأموية .

ومن « دمشق » حيناً . . ومن « خُناصِرة » أحياناً سيباشر مسئوليات الدولة الطويلة العريضة التى أصبح مسئولاً عنها – والمعجزات التى ستشهدها أيامه المباركات ؛ سنراها ثمرة لأمرين التزم بهما فى إخباتٍ شديد :

أولهما : الولاء المطلق للدين . .

ثانيهما : الولاء المطلق للأمة . .

يُدَثِّر هذا الولاء وذاك ، خوفٌ بالغ من الله ، يكاد تتصدّع من مثله الجبال ! !

* فأما ولاؤه للدين ، فقد كان إيمانه بالإسلام عظيماً . كان يرى فيه مَفاءَ نعمتِه وفِردوس حياته . .

يقول له بعض إخوانه ، وقد بهرهم عهده العظيم :

– جزاك الله عن الإسلام خيراً . .

فإذا هو يجيب :

« بل جَزى الله الإسلام عنى خيراً » . . ! !

ولقد زاده إيماناً بعظمة دينه ، تلك التطبيقات الباهرة التى كَشفت مقدرته فى بناء الدولة العادلة ، والأمة الفاضلة ، يوم كان يحمل رايته ذلك الرعيل الأول من أصحاب رسول الله . وعلى رأسهم أبو بكر الصديق . . والفاروق عمر . .

ولقد قضى عمره منذ طفولته ملتزماً أوامر الدين وحدُوده ، لكنه اليوم وقد صار خليفة للمسلمين ، فإن علاقته بالدين لم تعد علاقة المؤمن المطيع وحسب ، بل جاوزت ذلك إلى موقف الحارس والمنفِّذ . والمسئول عن

ترجمة حقيقة الإسلام ومبادئه إلى طريق عام ، تسير فيه الدولة والمجتمع . .

* وأما ولاؤه للأمة ، فهو فى الحقيقة امتداد لولائه للدين . فالدين بوصفه كلمة الله ، استوصَى أول ماستوصى بالإنسان . .

والإسلام خاصة يعطى أكثر اهتماماته لقضية الإنسان . . ! !

على أن الظروف التى وَلِىَ فيها « ابن عبدالعزيز » الخلافة ، كانت تعطى ولاءه لحقوق النَاس وَقوداً هائلاً من المظالم والمشكلات والأزمات التى خلفتها العهود الأموية السالفة .

لقد حدد ولاؤه هذا طبيعة مسئولياته وفلسفتها ، وراح يحَملها فى مزيج عجيب من الإرهاق والإشفاق . .

الإرهاق لنفسه ، حتى لايكاد يعطيها فرصة للتنفُّس . .

والإشفاق عليها أن يأتيها الموت قبل أن تفرغ من واجبها . . ! !

وإذا كانت الشهور التسعة والعشرون التى عاشها خليفة تُعتبر بالنسبة للتاريخ الإنسانى كله بمثابة لحظة . . فإن هذه اللحظة قد صارت من أعظم أزمان التاريخ تزكيةً للإنسان وتأثيراً فى الحقيقة إذ أعطت البشرية فى شتى عصورها وأديانها وأجناسها ، المثل على ماتستطيع الإرادة الإنسانية أن تحقق من قداسة ، وتصنع من إعجاز ، إذا جعلت الله رقيبَها ، والحقَّ كِتابَها . . ! !

* * *

لقد حرص « أمير المؤمنين » على أن يُدرك النَاسُ أنه لا يأتيهم بجديد من المبادئ والنظم . فكل ذلك فى قرآنهم ودينهم وتراث الرَّعيل الأول

الصالح من خلفاء رسولهم وأصحابه ، والتابعين لهم بإحسان . .

إنما هو يأتيهم بروح جديدة ، هى روح المسئولية الورعة الصادقة ، يُزكِّيها فهم سديد لجوهر الإسلام وأهداف شريعته .

وإذن . فإن علينا أن نَرصُد مَسار علاقته بمسئولياته فى ثلاثة مطالع :

المطلع الأول – وضوح المسئولية فى وعيه . .

المطلع الثانى – استغراقه فيها . .

المطلع الثالث – إخلاصه لها . .

* فأما عن الأول ، فنحن نعلم أنه لكى تستغرق قضية ما إنساناً مّا ؛ استغراقَ إيمان لااستغراق بحث ، فإنها لابد أن تكون قد بلغت من الوضوح والإسفار فى تفكير صاحبها وشعوره المدى الذى يقهر كل غموض ، ويتخطى كل تساؤل . .

والقضية التى استغرقت – عمر بن عبد العزيز – كانت من هذا الطراز – فهى لاتستغرقه استغراق باحث يحاول التأكد من صحتها وصدقها . بل استغراق مؤمن مفعم باليقين . . ! !

فلننظر الآن مظاهر وضوحها لديه . . وإذا كانت كلماته وخطبه إنما تعبر تعبيراً مطلقاً عن حقيقة اتجاهاته ومقاصده ، فإنها إذن كفيلة بإعطائنا صورة هذا الوضوح . .

ولنبدأ معه بهذه الخطبة :

« . . لقد سَنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه من بَعده سُنَناً ، الأخذ بها اعتصام بكتاب الله ، وقوة لدين الله . ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها ، ولا الركون لأمرٍ خالَفها . .

« من اهتدى بها ؛ فهو المهتد . .

« ومن استنصر بها ، فهو المنصور . .
« ومن تركها واتبع غيرَ سبيل المؤمنين وَلاَّه الله ماتولىَّ ، وأصْلاهُ جهنم وساءت مصيراً . .
« أيها الناس . .
إنه ليس بعد نبيكم نبى ، وليس بعد الكتاب الذى أنزل عليه كتاب . .
« فما أَحلَّ الله على لسان نبيه ، فهو حلال إلى يوم القيامة . .
وما حَرَّم الله على لسان نبيه ، فهو حرام إلى يوم القيامة . .
ألا وإنى لَسْتُ بقاض ، وإنما أنا مُنفّذ . .
« ولست بمبتدع ؛ إنما أنا مُتَّبع . .
« ولست بخيركم ، إنما أنا رجل منكم ، غير أنى أثقلكم حملاً » . . ! ! !

* * *

هكذا تتضح المسئولية فى رُوعه غاية الوضوح . .
فموضوعها – هذا الدين الذى أتمّ الله به النعمة وارتضاه للناس ديناً .
وحاملُها – ليس مُشرِّعا ، ولا قاضياً . . إنما هو مُنفذ لمشيئة هذا الدين ومبادئه .
وهذا الوضع لا يمنحه أى امتياز [لست بخيركم ، إنما أنا رجل منكم] .
والفارق الوحيد بينه وبين أفراد أمته هو أنه « أثقلهم حِملاً » – وهو كما نرى ، محسوب عليه . . وليس محسوباً له . .
بل إنه حين يدعو الناس إلى العبادة ومكارم الأخلاق لايقف منهم

موقف المعلم ولا الواعظ . بل نراه يتهم نفسه بالتقصير ويَضرعُ إلينا كى نُصدِّقه . . هو الذى بلغ أرفع مستويات التقى والعظمة والهدى والكمال . .

هاهو ذا يستقبل الناس خطيباً فيقول بكلمات يخنقها النحيب والبكاء :

« . . وأيْمُ الله . إنى لأقول لكم هذه المقالَة . وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما أعلمه عندى . فأستغفر الله وأتوب إليه » . . ! ! !

ووضوح مسئوليته كأمين على دين الله . هو نفس وضوحها كأمين على عباد الله . .

تروى زوجته « فاطمة بنت عبدالملك » هذه الواقعة :

« دخلت عليه يوماً ، وهو جالس فى مُصَلاَّه ، واضعاً خدَّه على يده ، ودموعه تسيل . .

« فقلت له : ما بالُك ، وفيم بكاؤك . . ؟ ؟

« فقال وَيْحك يافاطمة . . إنى قد وليت من أمر هذه الأمة ما وليت . ففكرت فى الفقير الجائع ، والمريض الضائع ، والعارى المجهود ، واليتيم المكسور ، والمظلوم المقهور ، والغريب ، والأسير ، والشيخ الكبير ، والأرملة الوحيدة ، وذى العيال الكثير والرزق القليل ، وأشباههم فى أقطار الأرض وأطراف البلاد ، فعلمتُ أن ربى سيسألنى عنهم يوم القيامة ، وأن خصمى دونهم يومئذ محمد صلى الله عليه وسلم ، فخشيت ألا تثبت لى حجة ؛ فلذلك أبكى » . .

هذا وضوح مسئوليته عن الأمة كلها والناس جميعاً ، وكما قال :

[فِى أقطار الأرض وأطراف البلاد] .

إن قلبه الورع الذكى الكبير ، مع كل فرد من أمته .

مع كل يتيم ، وكل شيخ ، وكل أرملة . .

مع كل فقير ، وكل مريض ، وكل مجهود . .

مع كل مظلوم ، وكل أسير ، وكل مَقهور . .

كل هؤلاء وأولئك قابعون فى ضميره ، يُجلجلون بحاجاتهم ، ويَجأرون بشكاواهم ، وينتظرونه – كما يتصوّر – ليخاصموه يوم القيامة أمام الله رب العالمين ، حيث لا ينجيه منهم غداً ، إلا ما يبذله لهم اليوم من حق ، وعدل ، وخير ، وبِرّ ! !

من هذه الصورة السريعة لوضوح مسئوليته فى عقله وقلبه ، ننتقل إلى صورة سريعة أخرى ترينا استغراقه فى هذه المسئولية وفناءه فيها . .

لقد احتوته المسئولية فى خِضَمِّها ، فَنسِىَ نفسه ، وأهلَه ، ودنياه ، وعالَمه . . نسى كل شىء سواها . ! !

بل نسى حقه فى استشعار الرضا والأمن جزاء ما يُقدم لدين الله ودنيا الناس من ولاء وبرِ . . حتى حقه هذا ، نسيه فى غمرة خوفه المشبوب من الله ! !

لم يعد يذكر سوى مسئوليته الفادحة ، وبدت له أعماله الشامخات كأنها ليست شيئاً مذكوراً . . وسيطرت على شعوره وفكره صورة واحدة – تلك هى صورة موقفه بين يدى الله سبحانه ، يسأله عن كل شعيرة من دينه ، وعن كل فرد من عباده . . ! !

تقول « فاطمة » زوجته :

« لقد كان يذكُر الله فى فراشه ، فينتفض انتفاضة العصفور من

شدة الخوف ، حتى أقول : لَيُصْبِحنَّ الناس ولا خليفة لهم » ! !

ويقول « على بن زيد » :

« كان يبدو ، وكأنَّ النار لم تُخلق إلاّ له » ! !

ويقول « ميمون بن مهران » :

« رأيتُه مرة يبكى ؛ فإذا هو يبكى دماً » ! !

إن « المضمون الإلهى » للمسئولية دفَع استغراقه إلى أقصى قيعانِ المسئولية وأبعادها . . .

لقد أصبح يستحيي من ربه أن يرى فى فمه لقمة شَهِيَّة . . أو أن يرى على جسده ثوباً ناعماً . . بل أن تُرى على شفتيه ضحكة – مجرد ضحكة. . !

فمنذ ولى الخلافة إلى أن يلقى ربه ، لن يرى ضاحكاً . . .

والرجل الذى كان قبل الخلافة بدقائق متأنقاً ، متألقاً ، فَوَّاح العبير ، قد جعلته المسئولية فى لمح البصر إنساناً آخر ، أشْعَث ، أغْبر . . .

تماماً مثل جَدّه العظيم « عمر بن الخطاب » ، لو لقيه من لا يعرفه من الناس . لسأله : = أين أجد أمير المؤمنين . . ؟ ؟ ! !

لقد رفض رفضاً مطلقاً كل أطايب الحياة ومناعمها ، ولاذَ بتقشُّف بعيد ، وشَظف ٍشديد . . .

إن الرجفة الكبرى التى نَجمَتْ عن وضوح مسئوليته بكل رهبتها وجلالها ، قد أخرجت حياته كلها عن مدارها الأول ، إلى مَدارٍ جديد . محوره سؤال الله له عن كل حق للدين ، وللدولة ، وللأمة . . .

إنه يعبد الله كثيراً . . ولكن « المعبود » لا « العبادة » هو مناط مخاوفه واهتماماته . . .

والآن وقد صار خليفة للمسلمين ، فإن علاقته بالله لم يعد يكفى

فيها أن تكون علاقة « عابد » بـ « معبوده » . . بل قبل ذلك يجب أن تكون علاقة « مسئول » بـ « مُسْتَخْلِفه » . . ! !

تقول زوجته « فاطمة » وقد سُئلت عن عبادته :

« والله ما كان بأكثر الناس صلاة ولا أكثرهم صياماً

ولكنى والله ، مارأيت أحداً أخوف لله منه » . . ! !

أجل . . لوكانت مخاوفُه هذه مخاوف « عابد » يخشى التقصير فى عبادته ، لوجدَتْ تلك المخاوف مَرفأها سريعاً ، لكنها ، مخاوف « مسئول » يرى الله قد ائتمنه على الدين والدنيا . . على الناس ، والزرع ، والأنعام . .

وهكذا كان استغراقه فى مسئوليته ، واستغراقها إياه ، حقيقة تتحدى كل وصف ، وتفوق كل مُبالَغة . .

* * *

وإنا لَنشهد صوَر هذا الاستغراق تتوالى على جميع مستويات حياته — خليفة ، وزوجاً ، وأباً ، وأخاً ، وقريباً ، وصديقاً . . ! !

فجميع علاقاته بنفسه ، وبعشيرته ، وبالناس أجمعين ، غائصة معه فى أعماق استغراقه البعيدة . بل إن الناس أنفسهم غائصون معه بدرجة قربهم منه مما جعل قرابته وصداقته تتحوَّل إلى غرم فادح للأقرباء والأصدقاء . .

ولقد عبّر عن هذه الحقيقة أجمل تعبير ، خادم له رآه أمير المؤمنين يسحب بِرْذَوْنَه ، فسأله :

« كيف حال الناس . . ؟ ؟

فأجابه :

« كل الناس فى راحة ، إلا أنت ، وأنا ، وهذا البِرْذَوْن . . ! ! » ! !

ولقد انعكس استغراقه فى مسئولياته على نفسه ، وعلى أهله ، وعلى كل الذين حوله انعكاساً مجيداً .

فأما هو ، فكما رأينا ، حلَّ فى إهابه إنسان آخر عجيب . .

هذا « محمد بن كعب القُرَظِى » يتحدث ، فلْنُصْغ إليه :

« دخلتُ على « عمر بن عبد العزيز » بعد استخلافه ، وقد نحل جسمه ، وعَفَا شعره ، وتغير لونه — وكان عهدنا به فى المدينة وهو أمير عليها . حسن الجسم ممتلئ البَضْعَة . .

« فجعلت أنظر إليه ، لا أصرف بصرى عنه . .

« فقال لى : يابن كعب . مالك تنظر إلىَّ نظراً ما كنتَ تنظره إلىّ من قبل . . ؟

« فقلت : لِعجَبى ، يا أمير المؤمنين . . ! !

قال : ومِمّ عجَبُك . . ؟

قلت : ممَّا نَحِل من جسمك . ونَفا من شعرك وتغير من لونك . .

« أين ذاك اللون النضير . . والشعر الحسن . . والبدن الريّان . . ؟ ! !

« فقال لى : إنك إذن لأشَدُّ عجباً من أمرى ، وإنكاراً لى ، لـو رأيتنى بعد ثلاث فى قبرى ، وقد وقعتْ عيناى على وَجْنَتَىَّ ، وسكن الدود مِنخَرى وفمى » . . ! ! !

ثم راح يبكى . . ويبكى ! !

لقد تغيرت الصورة والإطار . وذوَى الجسد الفارهُ الذى غذّاه النعيمَ تحت مَطارق الإحساس الرهيب بالمسئولية . . ! !

وإنه لَيدعو إليه فى الأيام الأولى لخلافته ، زوجته « فاطمة » ويواجهها بحقيقته الجديدة . . ويخبرها فى رفق أنه كزوج لم يعد له وجود ؛ فقد ثقلت أحماله حتى لم تعد هناك لحظة فى وقته يهبها لغير تلك الأعباء الثقال . ثم يعطيها حقها الكامل فى اختيار مستقبلها ومصيرها ! !

و« فاطمة » هذه ستظل مُتألقةفى وعينا طوال هذه الصفحات التى نسطرها عن زوجها الخليفة ، وسنظل نُزجِى لها من التحية والإجلال ماهى له أهل – أىُّ أهل . . ! !

فلقد ظلت بجوار زوجها « القِدِّيس » تشاركه التقشّف القاسى الذى فرضه على نفسه . . ولم تكن تزيد حين تُقرقِر أمعاؤها من الجوع ، وترتعد أوصالها من الصقيع ، على أن تقول :

« ياليت كان بيننا وبين الخلافة بُعْدَ المشرِقَين . .

« فوالله ، ما رأينا سُروراً مُذ دخلَتْ علينا » . . ! ! !

لقد أخذها معه إلى قِيعان مسئوليته واستغراقه . . وأضحت السيدةُ التى كانت زوجةَ خليفة . . وبنتَ خليفة . . وأختَ خليفة . . والمتقلّبة فى أبهى ما كانت الدنيا تعرف يومئذ من حرير ولؤلؤ وذهب ونعيم . .أضْحَتْ لاتملك إلا ثوبين خَشِنين . . فقد حمل الخليفة كل حُلَله وحُللها وحُلل أبنائه وبناته وأمر ببيعها ، ووضع أثمانها فى بيت مال المسلمين . . وأضحت لا تأكل ـ أكثر ما تأكل ـ إلا الخبز الجـاف مُبلّلاً بالزيت ، أو مَثْرودًا بالعـدس . . وأضحت صاحبةَ الوجه الشاحب ، والجسد الضامر الوَهْنان . . ! ! !

دخل عليها — أمير المؤمنين — يوماً ، وهى تَخِيط ثوبها بيديها فَربَّتَ على كتفها مداعباً ، وقال :

« يافاطمة . .

« لَنَحْنُ ليالى دَابِق ، أنعمُ منا اليوم » ! !

مشيراً بهذا إلى حياتهم المنعمة قبل الخلافة فى « مَرْج دابق »

فأجابته قائلة :

« والله ما كنتَ على ذلك — يومئذ — أقدرَ منك اليوم » ! !

تعنى أنه الآن وهو خليفة وحاكم لدولة عظمى ، أقدرُ على التزوّد من النعيم ، منه قبل ذلك . .

وفجأة ، يمتقع لونه ، وتنثال دموعه ، ويُدرك أنه جاوز بهذه الدُّعابة حدَّه ، فيقول :

« يافاطمة . .

« إنى أخاف إن عصيتُ ربى عذابَ يوم عظيم » ! !

ولم تلبث « فاطمة » إلا قليلاً حتى أَلِفَتْ شظَف الحياة التى اختارها « عمر » لنفسه ولذويه . . وحتى راحت تحياها بروحٍ مُحِبَّة متفانية . .

لقد مَسَّتْها بركات زوجها القديس ، فراحت تكتشف النعيم الكامِن ، فى الشظف الماثِل . . وتستشرف من وراء دنيانا الفانية فِردوس الله الأعلى ، ورضوانه العظيم . . ! !

* * *

وبهذا الوضوح الكامل لمسئوليته . . وبهذا الاستغراق العظيم فيها ، يستكمل الولاء زواياه بالإخلاص المطلق الذى يربطه بهذه المسئولية أوثق رِباط . .

والإخلاص للمسئولية - أية مسئولية - يُشكِّل السياج المنيع الذى يحفظها داخل موضوعيتها ، ويصونها من تَقحُّم الأنانية والهوى عليها . .

وهذا ، هو جوهر الإخلاص لَدى أمير المؤمنين « عمر بن عبدالعزيز » . .

فهو لا يستغرق فيها استغراق من يريد أن يبلغ بها مجداً شخصياً ، أو مغنماً ذاتيًّا . . بل استغراق فانٍ فيها ، مُتَبَتِّل لها . ليس بين يديه ، ولا من خَلفه ، ولا عن يمينه ، ولا عن شماله شىء يلهيه عنها أو يغريه بها . .

إنه إخلاص يعكسه إخلاصه لله رب العالمين .

ورجل كعمر حين يخلص لله ، فلا تستطيع ألف دنيا كدنيانا أن تدخل فى هذه الصفقة نِدًّا ، أو شريكاً . . ! !

لقد كان - رضى الله عنه وأرضاه - دائم الترديد لهذه الآية الكريمة :

« ومَا يُؤْمِنُ أكثرهُم باللهِ إلاَّ وهُم مشركون »

واتخذ منها نذيراً يلهب به نفسه لتبلغ بإخلاصها لربه ولدينه ولمسئوليته أقصى ما يستطيع أولو العزم الراشدون . وكان يدرك بنور بصيرته أن أدنى مجاملة على حساب إخلاصه لمسئوليته إنما هو شرك متنكر وخفى . من نوع ذلك الشرك الذى حذَّر الرسول أَصحابه منه ، مُخبراً أن له دبيباً كدبيب النَّمل . .

لقد نجح « القديِّس » نجاحاً باهراً فى صَوْن إخلاصه من دبيب النمل هذا . . وأضحى الناس يقول بعضهم لبعض :

هذا أول خليفة أموى لانجد حاجة فى قَرْع أبوابه ،
فإن مايكون لنا من حق يأتينا ونحن فى دُورِنا . .
وما ليس لنا بحق ، فَدُونَ بُلوغِه قَطْعُ الرقاب . . ! !

أجلْ . . لم يكن لإخلاص ابن عبد العزيز . . مُزاحم ولامنافس

لامن قرابة ، ولا مِن صداقة .

يقع خلاف بينه وبين بعض أمراء بنى أمية حول حقوق يَروْنها لأنفسهم .

ويقول أحدهم للخليفة : سآتيك بصَكّ الوليد . .

وفى كلمات حازمة ، يقول عمر .

« أبِالمصحف ستجئ » . . ؟؟!!

لقد صار الحق وحده هو الفيصل والحكَم . . فلا صُكوك ولا مَواثيق إلا صكوك الحق ومواثيقه . . ولا رَحِم ولا قرابة إلا رَحِم الحق وقرابته . .

ولا يحول بينه وبين الحق شفاعة ، ولا رغبة ، ولا رهبة . .

* * *

كانت عمته « أم عمرو » بنت مروان ، صاحبة دَالَّةٍ على خلفاء بنى مروان وأمرائهم . . وكانت أثيرة لدى – عمر بن عبد العزيز – وموضع حبه العميق ، واحترامه الوثيق .

وحين ألْغى كل مخصصات بنى مروان ، ألغى مخصصاتها أيضاً فسارعَت إليه . . وفوجئت به جالساً يتناول طعام عشائه .

وسلَّمت « العمّة » ثم جلست ، وراحت تُحَمْلِق بعينيها لاتكاد تصدق ماتراه . .

لقد كان كل مابين يديه من طعام ، خبز جاف ، وطبق عدس وملح ! !

ودارتْ بها الأرض . . ! !

أهذا هو « عمر » الذى كان يخوض فى النعيم خوضاً ؟ ؟

آلآن – وهو الخليفة المطاع – يصير هذا طعامه . . ؟ !

ولم تمالك نفسها . فأجهشت بالبكاء ، ثم قالت :

« لقد جئتك فى حاجة لى . . ولكنى لم أكد أراك حتى رأيت أن أبدأ بك قبل نفسى » . . ! !

قال الخليفة :

« وما ذاك ، ياعَمّة » . . ؟ ؟

قالت : « لو اتخذتَ لك طعاماً ألْيَنَ من هذا » . . ؟ ؟

قال : « لا أملك غيره ياعمّة ، ولو كان عندى لفعلت » . .

قالت : « إن عمك « عبد الملك » كان يُجرى علىَّ ماتعلم . . ثم كان أخوك « الوليد » فزادنى .. ثم كان « سليمان فزادنى . . ثم وليت أنت فقطعته عني » . .

فأجابها : « ياعمّة : إن عمى – عبدالملك – وأخى – الوليد – وأخى – سليمان – كانوا يعطونك من مال المسلمين وليس ذلك المال لى فأُعطِيكَه ، ولكنى أعطيك مالى إن شئتِ . .

قالت : « وما مالُك ، ياأمير المؤمنين . . ؟

قال : « عطائى . . مائتا دينار فى العام . .

قالت : « وما يبلغ منى عَطاؤك » . . ؟ ؟ ! !

ثم انصرفت عنه يائسة ، بائسة ، و هى التى كان الخلفاء ينحنون لرغبتها ، ويُسارِعون إلى هواها . . ! !

أبقِيَتْ هناك شفاعة لشافع . . أومطمع لطامع . . ؟ !

لا . . ففى وَقْدة إخلاصه احترقَتْ كل الأطماع . وإن هذا الإخلاص لَيحيطه بسياج ترتدّ عنه كل المحاولات عاجزة مُفلِسة . .

كما يحيطه بغلاف من الأمن النفسى لايخترقه وعيد ، أو تهديد ، أو خوف . .

قال له بعض أصفيائه ، حين جرّد الأمراء الأمويين من كل ثرواتهم وممتلكاتهم ودفع بها إلى بيت المال :

[يا أمير المؤمنين ، ألا تخاف غَوائل قومك] . . ؟ ؟

فإذا الحليم الأوّاب ، الهادئ السَّمْت ، الباكى العين ينتفض كالأسد ، وتخرج الكلمات من فمه كالزئير :

« أبيومٍ سوى يوم القيامة تُخوفوننى . . . ؟ ؟

« فكل خوف أتّقيه دون يوم القيامة لا وُقيتُه » ! !

حقًّا . إن الفضيلة مَثوبة نفسها . . وحين يُخلص امرُؤ للحق مثل هذا الإخلاص الذى نراه ، فإن إخلاصهُ ينوء عليه ما لا ينوء مِعشارَه ذكاء ، أو جهد ، أو حُظوظ ! !

إن العقبات التى كانت تتشامَخ أمام « عمر » لِتصده عن السبيل كانت تتحدى كل طاقة واقتدار . .

فأمراء البيت المالك . . والطبقة العريضة التى أنجبها الحكم الأموى ، وأَصبحت أسيرة مصالحها ونفوذها . . والفساد الذى كان ناشراً سلطانه . . والاقتصاد المتردِّى . . والأزمات الطاحنة . . ثم علاقاته بأهله وبأصدقائه . .

كل ذلك ومِثْلُهُ معه ذاب تحت أنفاس إخلاصه الحار المتألق . . ! !

* * *

وإذا كان إخلاصه هذا يبهرنا بمقدرته الفائقة على اكتساح السدود ،

فإنه لَيبهرنا قبل ذلك بمفهومه الذى كان له فى وعى « عمر » وضميره . .

فهو بكل مواهبه وكفاياته لايرى لنفسه الحق فى أن يحمل مسئولياته بذكائه . . بل عليه أن يحملها ويُنجزها بالإخلاص وحده

إنه يَبرأ إلى الله من حوله ومن قوته . . وإنه فى ضياء إخلاصه الغامر لَيهرب من قدرته إلى قدرة الله ، ومن اختياره إلى اختيار الله ، ومن رأيه إلى توفيق الله . . ! !

لهذا كان دعاؤه الدائم :

« اللهم رَضِّنى بقضائك . وبارك لى فى قَدَرك ؛ حتى لا أحبّ تعجيلَ ما أخّرت ، ولا تأخير ما عجَّلْت » ! !

إنه يعلم أن الإخلاص حين يحتوى قُوَى الذكاء الإنسانى ويَصهرها فى بَوْتَقِته ، فإنه يضاعف من فاعلية هذا الذكاء أضعافاً كثيرة . وبَدلاً من أن يُشتته الهوى والغرض ، تُؤَلِّفه وحدة العمل والاتجاه . . هذه الوحدة ، التى يُفيئها الإخلاص ويُزْجيها . .

* * *

وكما تُوَلِّد الكهرباء الحركة وتُفجِّرها ؛ فإن الإخلاص لمسئولية الحكم قد فجَّر وولّد حركة حياة ابن عبدالعزيز . . هذه الحركة التى لم تكن سوى : القَداسَة . .

والقَداسَة ، هى الحاصل النهائى لفضائل الروح مُجتمعة ومتألقة فى ذِروة تجلّيها وظهورها . .

هنالك تكون القَداسة ، ويكون القدِّيس . .

ولقد أفاءت المسئولية على – عمر – التوفيق الذى سما بفضائل روحه

من ورع وزهد وطهر ونُسُك إلى أعلى مستوياتها ، ومن ثَمَّ كانت المسئولية سبباً مباشراً لظفره بالقداسة ، وهذا جوهر إعجازه الفريد . . .

فلو أنه كان قديساً من قبل ، ثم جاءته الخلافة وهو متمكن من فضائله وقَداسته ، فبقى وفيًّا لها مُثابراً عليها . . . ؟ ؟

لكن الذى حدث أن منصب الخلافة الذى يُغرى بكل شيء إلا بالقداسة ، هو الذى كان ، وكانت مسئولياته الجِسام ، مِرقاة رُوحه الطاهرة العظيمة توقَّلَتْه فى لمح البصر إلى فردوس القداسة ، ومكانة القدِّيس . . ! !

* * *

وهناك عبارة يكتبها مؤرخو سيرته تستوقفنا طويلاً ، وتبهرنا كثيراً . . أما العبارة فهاهى ذى :

[« . . ثم بويع « عمر بن عبد العزيز » .
فقعد للناس على الأرض » . . ! !]

إن هذه العبارة الموجزة تفتح بصائرنا على قوة « القداسَة » التى أنعم الله بها على عبده الصالح « عمر بن العزيز » . .

إنها قوة تكتسح كل الأوضاع الرتيبة والعلاقات المألوفة ؛ لتنشىء أوضاعها الخاصة ، وعلاقاتها المخلصة . .

فما من بأس فى أن يجلس الخليفة مجلساً فيه من روعة المظهر أو بَهائه ما يحفظ وقار المنصب .

أجَلْ ، ليس هناك بأس . .

و« عمر » يعلم هذا بفقهه وسعة أُفقه . .

بيد أنه من اللحظة التى طوَّقته فيها المسئولية ، لم تكن تحركه روح

الخليفة . . بل روح القدِّيس . . ! !

والقداسة — دائماً — تضع الوسيلة فى مستوى الغاية ، فلا يعنيها بلوغ الغاية إلا بالقدر الذى يَعنيها فيه نوع الوسيلة . .

ثم إن لها وسائلها ومنطقها . .

إنها تتعامل مع جوهر الأشياء ، لامع الأشياء نفسها . . ولمّا كان جوهر السلطة فى نظر القداسة ، الخضوع المطلق لحقوق الناس الذين يلى الخليفة أمرهم ، ويحمل مسئولية مصايرهم ، فإن مكانه إذن أن يكون بين أيديهم ، وليسوا هم الذين بين يديه . .

والشكل الذى رآه « عمر » ملائماً للتعبير عن هذه الحقيقة . هو جلوسه للناس على الأرض . . ! !

أجل . . ليس مجرد الجلوس على الأرض ، الأمر الذى كان يعنيه . إنما هى الحقيقة المجيدة التى يمثلها هذا الجلوس . . حقيقة أن السلطة خضوع كامل لحقوق الناس تجاهها . . ! !

وإذن فلتأخذ من ناحية الشكل أقصىَ مظاهر الخضوع ، كما ستأخذ من ناحية المضمون أقصى مظاهر الالتزام . . ! !

ومن أجل هذا قعد الخليفة على الأرض ، لايفصله عن ترابها سوى حصير متواضع . .

قعد على الأرض ؛ ليهدم كل ماللسلطة من بَذْخ واستعلاء ، ولينزلها عن عرشها الصَّلِف وكبريائها الزائفة ، إلى أرض البساطة ، والتواضع ، والمرحمَة . . ! !

* * *

والقداسة التى تمتع بها ابن عبدالعزيز ، قداسَةُ رجل أراه الله مَناسِكَه . . فهو يرى بنورٍ من ربه ، ويُطل من جميع النوافذ دون أن تحتبسه صومعة ، أو يعطل رؤيته تَزمُّت وانطواء . .

إنها قداسَة تبهرنا بما تنطوى عليه من فطنة وحِذق ومضاء . فهل يتصور أحد أن قديساً كهذا القديس لا يكفّ عن العبادة والنُّسُك ، يُطلب إليه ذات يوم الموافقة على صرف مبلغ كبير من المال لكسوة الكعبة ، فيكون جوابه :

« إنى أرى أن أجعل هذا المال فى أكباد
جائعة ؛ فإنها أولى به من الكعبة » . . ! !

هل يُتصور حدوث ذلك ، مِن عابد ، ناسك ، قدِّيس ؟ ؟

لكنها القَداسَة الذكيّة التى تُحَدِّق دائماً فى الجوهر ، وتضع على همسِه العميق سمعَها ، وتتبَّع مَواقع الحق ، كما يتتبع الطير مواقع النَّدَى . . !

إن هذا الناسك الأوَّاب ، لَيُذكَر له يوماً نبأ واعظ يدعو الناس إلى طاعات لايأتيها ، فإذا القديس يُعلِّق على هذا بقوله :

« لو أن كل امرئٍ لايأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى
يُلزِم بذلك نفسه ، لما كان هناك أمر بالمعروف ولانهى عن المنكر . .
ولَقلَّ الواعظون والسَّاعون لله بالنصيحة » . . ! !

إنها قداسة ذكية نفَّاذة . . .

قَداسَةُ رجل كان يدعو ربه دائماً فيقول :

« اللهم انفعنى بعقلى » . . ! ! !

* * *

وهى قَداسَة أتيح لها أن تُحدِث تغييراً من أعدل وأنبل ماشهدت

دنيا الناس من تغيير . ! !

قداسة جاءت الحياة ، ومعها من الزهد ، والورع ، والطهر ، والتُّقى ، والعدل ، والرحمة ، ماكان الناس يحسبون أن الدنيا فَرغَتْ منه إلى الأبد . .

قداسة لم تكد تجلس للناس على الأرض] حتى أنبتت الأرض عدلاً ورحمة . . وأمطرت السماء عدلاً ورحمة . . ورعى الذئب مع الشاة ، فى تآخ وسلام . . ! ! !

ولقد أنجز القديس كل هذا التغيير الهائل الذى بدا وكأنه تغيير فى كيمياء الزمن ، وكيمياء الحياة . . أنجزه بمنهج لا ندرىَ أنقول ! إنه بالغ اليْسر . . أم نقول : إنه بالغ الصعوبة . .

أم أن اليُسر والصعوبة- يتراجعان بعيداً ، ليفسحا المكان لوصف آخر أحق منهما وأولى . . ؟ ؟

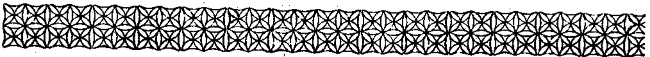
أجَل . . إن ذلك لكذلك . .

فلنقل إذن : إنه منهج بالغ الإعجاز . . . ! !

الفصل السابع

المنهج

[. . بل يُصلحهم العدل والحق
فابْسُط ذلك فيهم . .] ! !



كَتب إليه واليه على خُراسان يستأذنه فى أن يرخص له باستخدام بعض القوة والعنف مع أهلها ، قائلاً فى رسالته للخليفة : [إنهم لايصلحهم إلا السيف والسوط] . .

فكان رده التَّقِيُّ الحازم :

« كذَبتَ . .

« بل يُصلحهم العدل والحق ، فابْسُطْ ذلك فيهم ، واعلم أن الله لا يُصلِح عمل المفسدين » . . ! ! !

* * *

العدل ، والحق . . ! !

بهما وعليهما سيقوم منهج أمير المؤمنين ، وعلى طريقهما اللاحِب المستقيم ، ستمضى خُطاه . . آخذاً معه على ذات الطريق جميع الناس — أمراءهم ، وعامّتهم . . أغنياءهم ، وفقراءهم . . أقوياءهم ، وضعفاءهم . .

والخليفة ، الذى نراه دائم البكاء ، بل النحيب . كلما ذكَر الله واليوم الآخر . . والذى ينتفض تحت وقع تُقاه انتفاضة العصفور ، حتى لنحسبُه لايَصلح لغير الصومعة يتحنَّثُ فيها ويتعبد . . ! !

هذا الخليفة ، سيبهرنا الآن ونحن نطالع منهجه وأسلوبه فى الحكم حيث تُطِلّ علينا من وراء دموعه المُنثالة روح عالية تناضل فى جهاد مستبسل لبلوغ أسمى آفاق العدالة والحق . . وحيث تُطِل علينا كذلك بصيرة نافذة لايُفلت من ضيائها شيء وإرادة حازمة لا يَهُولُها صعب ، ولا يُجْفِلُها خطَر . . . !

وفجأة سنرى العينين السابحتين فى دموعهما دوماً ، تُحَدِّقان كعينى الصقر . . وتُرسِلان بريقاً أخّاذاً يُقنع كل من يتلقاه أنه أمام عينين ثاقبتين ليس إلى خداعهما سبيل . . ! !

* * *

إن المصاعب المتطاولة ، والأخطار المحدقة ، والمؤمرات المتساوقة ، لن تزيد الإرادة الرافعة لواء العدل والحق إلا تقدماً ومضاء . .

فَلْتُغنِ العواقب لنفسها . . أما هو فلن يبالى بما كان ولا بما سيكون منها . . بل سيضع يمينه فى يمين الحق . ويمضى معه إلى حيث يُد مدِمان معاً على مظالم وظلمات الأعوام الستين التى سبقته فى الحكم الأموى . . وإلى حيث يجعلان ظُلُماتِها نوراً . . وهَجيرها فردوساً . . وترفَها قناعة . . وانحلالها ورَعاً . . واستعلاءها تواضعاً . . وقَهرها رحمة . . ورُعْبَها أمناً . . ! !

وبين يدى عَزمِه الرّبانى القدير ، راحت كلماته تقرع أسماع الغطرسة ، والتحدى :

« والله ، لو لم ينهض الحق ويُدْحَضِ الباطل إلا بتقطيع أوصالى وأعضائى ، لأَمضَيْتُ ذلك وأنا سعيد » ! ! !

« ووالله ، لو لَبِثْتُ فيكم خمسين عاماً ، ما أقمتُ إلا ما أريد من العدل » . . . . !

فلْنتابع منهجه لنرى . .

ولكن علينا ألاّ ندع التفاصيل الكثيرة تَشغلنا ببهرها عن الأسس والقواعد .

وعلينا أن نقتصد فى ذكر الوقائع والمشاهد التى تحكى خصائص المنهج وسماتِه ؛ حتى يُفِيء علينا هذا التركيز فى الرؤية تركيزاً مُماثلا فى نشوة العقل وغبطة الروح . .

أى أننا سنكتفى من المنهج بنقاط ارتكازه ومَحاوِره التى تدور حولها بقية التطبيقات والتفاصيل . .

وتتلخص هذه المحاور فى :

* نظرته إلى دور الدولة ووظيفتها . .
* نظرته إلى دور الشورى ووظيفتها . .
* نظرته إلى دور المال ووظيفته . .
* موقفه من وحدة الأمة وسلامتها . . .
* أسلوبه فى العمل . .

* * *

« فأولاً » : الدولة قدوة . .

إن الحكام الذين يفرضون سلطان القانون بسلطان الدولة لا يأتون

أمراً مذكوراً . . فتلك سُنة مألوفة معتادة . أن تحمى القوة القانون . .

أما الحكام الذين يَحمون القانون وينفذونه بالقدوة ، فأولئك الذين يجاوزون المألوف المعتاد إلى الخوارق والمعجزات . . .

ولقد كان « ابن عبد العزيز » واحداً من هؤلاء .

لقد كانت الدولة قبل عهده تحيا خارج وظيفتها وخارج حقيقتها ؛ إذ تركت مواقع عملها واستسلمت للغواية والهوى . .

والدولة عنده تتمثل فى كل الأجهزة العاملة ، لكن يأتى فى المقدمة دائماً :

(ا) الخليفة بوصفه رئيس الدولة . .

(ب) الولاة بوصفهم حكام الأقاليم . .

(ج) القضاة . .

(د) أمناء بيوت المال . .

والخليفة – أىُّ خليفة – وإن وضعته وظيفته ومسئولياته على رأس الدولة ، فإنه يظل عاجزا عن أداء دوره مالم يقف معه فى مستواه أو قريباً من مستواه وُلاته وقضاتُه وأمناؤه على الأموال العامة .

هاهو ذا « عمر » يقول :

« إن للسلطان أركاناً لايثبُت إلا بها . .

« فالوالى ، ركن . .

« والقاضى ، ركن . .

« وصاحب بيت المال ، ركن . .

« والركن الرابع ، أنا » . . ! !

وإذن ، فلكى تكون الدولة قدوة فى حمل دين الله وحقوق الناس ،

لابد أن تتشكل هذه القدوة من سلوك هؤلاء الأربعة مجتمعين . .

الخليفة ، وولاتُه ، وقُضاتُه ، وخزَنتهُ . .

ولكى تكون الدولة قدوة ، لا بد أن تكون بمسئوليها جميعاً ، وعلى رأسهم أمير المؤمنين ، طليعة العمل ورائده . .

وهكذا راح « عمر » يضع الدولة كلها وهو على رأسها فى مكان القدوة ، حاملةً وحاملاً معها كل ماتلقيه القدوة من مسئوليات ، وباذلاً كل ماتتطلبه من تضحيات . .

وقبل أن يأمر ولاته ، وقضاته ، وخزَنته . بدأ بنفسه .

* * *

لقد تلوْنا من قبل ، كلمته العظيمة :

« لست إلا كأحدكم غير أنى أثقلكم حِملا » ! !

وهنا ، نرى طريقته فى وضع هذا المبدأ موضع التنفيذ الحاسم ، الحازم ، الفريد . .

لقد كان دخله السنوى حتى اليوم الذى ولى فيه الخلافة أربعين ألف دينار . . هى حصيلته من مُخصّصاته كأمير أموىّ . . ومن الأرض التى كان يملكها . . ومن نصيبه الوفير من ميراث أبيه عبدالعزيز بن مروان . .

والآن ، تتفتح بصيرته ، على الحقيقة العميقة ، فيرى أن هذا الثراء الفاحش الذى يمتلكه أمراء بنى مروان – وهو معهم – لم يبلغوه بعرق الجبين . . وما هذه الثروة المتمركزة فى أيدى حفَنات من الأمراء والسادة ، إلا حقوق الملايين وأقواتها سُلبتْ منها بغير حق ، وبغير سلطان . . !

ومن فَوره ، اتخذ قراره الحاسم بإلغاء كافة مخصصات الأمراء ، ومُخصصات حَرَسِهم وخدمهم ، وقراره بنزع الإقطاعيات الزراعية منهم جميعاً ، وردها إلى بيت المال . .

وبدأ بنفسه ، فتخلَّى عن جميع أملاكه وأمواله ! !حتى أرض « فَدَك » فى « خيْبَر » وكانت خير ممتلكاتِه وأثمنَها . ولم يكن أحد أقطَعه إياها ، بل ورثها عن أبيه . .

لكنه سأل نفسه : ومن أين جاء بها أبوه . . ؟ !

لقد أفاءها الله على رسوله عليه الصلاة والسلام يوم « خيبر » ، فخصَّصها لأبناء السبيل . وظلت كذلك حتى ملك الأمرَ معاوية . فوهبها لمروان . . ومن مروان . وصلت إلى ابنه « عبدالعزيز » والد « عمر » . .

نقول : حتى هذه الأرض ، تخلىَّ عنها وكتب لواليه على المدينة يأمره أن يضمها لملكية الدولة ، وأن يصرف رَيْعها ونتاجها ، حيث كان يُصرف على عهد الرسول وخلفائه . .

ليس ذلك فحسب . . بل لقد تنازل عن كل درهم فى راتبه المخصص له كأمير للمؤمنين . . ! !

لقد اكتفى من دنياه كلها ، ولدنياه كلها ، بقطعة أرض صغيرة كان قد اشتراها بِحُرِّ ماله ، ولم تكن تُغِلّ أكثر من مائتى دينار فى العام ، راح يعيش بها هو وأسرته الكبيرة .

مائتـــا دينار فى العام ، لرجل كان دخله منذ أيام لاغير — أربعين ألف دينار . . ! !

مائتا دينار ، لحاكِم أعظم ، وأكبر ، وأغني امبراطوريات عصره وعالمه ، يعيش بها طول العام وعَرضه ، وتعيش معه أسرته التى كانت هى الأخرى —

منذ أيام – لاغير ، تَخُبُّ فى النعيم خَبًّا . . وتَعُبُّ المباهج عَبًّا . . ! ! !

ولكن ، أى بأس ؟ !

أليس قد رفع الحقَّ شريعة والعدلَ منهاجاً ؟ !

فليكن حَسْبُه ألاّ تسقط الراية من يمينه . . وليكن حسبه أن يُحلِّق بها فى مستوًى تتقطع دون بلوغه الأنفاس . . ! !

كل أرضه تركها للدولة . .

كل ثروته النقدية ، دفعها إلى خزانة الدولة . .

بل لقد جمع ثيابه وحُلله الرافهة ، وحُلل زوجته وأولاده . .

ثم جمع مراكبه وعُطوره ومَتاعه ، ثم دفع ثمنها الذى بلغ ثلاثة وعشرين ألف دينار إلى بيت المال . . ! !

ثم حَرم نفسه حتى حقها المشروع فى راتب الخلافة الذى كان يستطيع أن يتنازل عن نصفه أو عن ثلثيه ، لكنه رفضه جميعاً إلى آخر درهم منه . . وراح يعيش بعائد أرضه الصغيرة – مائتى دينار فى العام – بواقع ثلاثة أرباع دينار فى اليوم ، لأمير المؤمنين وزوجة أمير المؤمنين ، وأولاد أمير المؤمنين . !

أفما كان يكفيه أن ينفرد هو بأعباء القدوة ، تاركاً أهله وأولاده يحيون ولو فى مستوى حياة أوساط الناس . . ؟ ؟

إنه يعتبر هذا – لوحدث – احتيالا على المسئولية ، وهروباً من تبعات القدوة ، ويرى النار تمدُّ إليه ألسنتها اللاهبة ؛ لتطوقه حساباً له وعقاباً . . ! !

ومَن ظن أننا نبالغ فى التصوير ، ونُسرف فى صبغ الألوان فليطالع هذه الواقعة :

لقد عاد يوماً إلى داره بعد صلاة العشاء ، ولَمح بناته الصغار . فسلم

عليهن كعادته ، وبدلاً من أن يسارعن نحوه بالتحية كعادتهن .. رُحْنَ يُغطّين أفواههن بأكُفِّهم ويتبادَرْنَ الباب . .

فسأل : ماشأنهن . . ؟؟

فأجيب : بأنه لم يكن لديهن مايتعشَّين به سوى عدس وبصل . . فكرِهْن أن يَشمّ من أفواههن ريح البصل فتحاشَيْنَه لهذا . .

فبكى أمير المؤمنين ، وقال يخاطبهن :

« يابناتى . .

ما ينفعكُن أن تعَشَّين الألوان والأطايِب ، ثم يُذهَب بأبيكُنَّ إلى النار . . ؟؟ . . » ! ! !

وترى إحدى بناته الصغار صديقة لها تزين أذنيها بلؤلؤتين جميلتين ، فترسل إحداهما إلى أبيها ضارعة أن يشترى لها مثلها .

ويدعو أمير المؤمنين خادمه ، ويأمره أن يجىء بجمرتين ملتهبتين . . ثم يطلب ابنته فيقول لها :

« إن استطعتِ أن تجعلى هاتين الجمرتين فى أذنيك ، جئتك بلؤلؤتين كهذه » . . ! !

إن مسئولية القدوة – إذن – لاتنحصر فيه ، هو الخليفة والحاكم . . بل – وحسب منهجه وتقديره – تنال أهله جميعاً ، حتى بُنَيّاته الصغار . . !

وهكذا راح يحملهم على التضحية فى سبيل المسئولية والقدوة . . اقترب يوماً من زوجته فاطمة ، وقال لها :

« إنك لَتعلمين من أين أتاك أبوك – عبدالملك بن مروان – بهذه الجواهر ، فهل لك أن أجعلها فى تابوت ، أضعه فى أقصى

بيت المال ، وأنفق مادونه ، فإن خَلَصْتُ إليه أنفقته فى حاجات المسلمين » . . ؟ ؟

ولم يكن قد بقى لفاطمة سوى هذا الحُلِىّ وهذه الجواهر ، وهى عزيزة عليها ؛ لأنها هدية أبيها لها فى عُرسها وزَفافها . .

ولكنها لاتُجادل زوجها « القديس » حتى فى هذه . . وتجرد منه نحرها ، ومعصميها ، فى غبطة ورضاً . . ! !

* * *

ويغادر – أمير المؤمنين – قصور الخلافة ، ويأوى إلى دار متواضعة . .

ثم لا تشهد هذه الدار إيقادِ النار إلا لِماماً . .

ويأخذ على نفسه العهد ألاَ يَستحدث لنفسه شيئاً من أشياء الدنيا ومتاعها حتى يلقى ربه . .

يحدث ابن عياش ، فيقول :

« كان لعمر مِرقاتان يرقى عليهما من صحن داره إلى حجرته . .

« فتهدَّمت إحدى المرقاتين ، فأعاد بناءها رجل من أهله . .

« فلما جاء « عمر » ووجدها . سأل : مَن صنع هذا . . ؟

قالوا : فلان . قال : إلىَّ به . .

« فلما جاء قال له عمر . وَيحك أَنفِسْتَ على « عمر » أن يخرج من الدنيا ولم يضع لَبِنة على لبنة . . ؟ !

« والله ، لولا أن يكون هدمى لها إفساداً بعد إصلاح لهدمتها ورددتها إلى ما كانت عليه . . » ! ! !

* * *

ويدخل عليه فى داره أحد خاصَّته المقربين ، فيجده بركن منها تغطيه الشمس ، وقد دثّر جسمه كله فى إزار . . وحَسِبه الزائر مريضاً ، فسأله ، ما بالُه . . ؟

فأجاب أمير المؤمنين :

« لاشيء ، غير أنى أنتظر ثيابى حتى تجفّ . .

قال الزائر : وما ثيابك يا أمير المؤمنين . . ؟

قال عمر : قميص ، ورداء ، وإزار . .

قال صاحبه : الا تتخذ قميصاً آخر ، ورداء ، وإزاراً . . ؟

قال الخليفة : كان لى ، ثم بَلِيَتْ . . ! !

قال الزائر : ألا تتخذ سواها . . ؟ ؟

وهنا شَرِقَتْ كلماته بدموعه ، وراح يُجهش بالبكاء مسنداً جبهته على راحتيه ، مُردداً آية القرآن الكريم .

[« تلك الدارُ الآخرة نجعلها للذين لايُريدون عُلُوًّا فى الأرض ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين » . . ! ! !]

ولما كان يريد للدولة فى عهده أن تكون رحمة وحناناً ؛ فقد راح يمزق عنها كل أقنعة الصَّلَف والكبر والتمايُز . .

وأيضاً ، بدأ بنفسه ، فمنع الحراس أن يسيروا بين يديه . بل منعهم كما منع الناس جميعاً أن يقوموا له حين يَطلُع عليهم ، وقال لهم :

« إنما يقوم الناس لرب العالمين » ! !

وناداه يوماً رجل من المسلمين قائلاً : [ياخليفة الله فى الأرض] . . فأخذته الرّعدة الصالحة ، وصاح فى الرجل :

« مَـــــهْ . .

« إنى لما وُلدتُ أسمانى أهلى « عمر » فلو ناديتنى يا « عمر » أجبتك . .

« ولما كبرت اخترت لنفسى كُنية ، فكُنيت « أباحفص » ، فلو ناديتنى – يا أبا حفص – أجبتك . .

« ولما وليتمونى أموركم سميتمونى « أمير المؤمنين » فلو ناديتنى – يا أمير المؤمنين – أجبتك . .

« وأما خليفة الله فى الأرض ، فلست كذلك . .

« إنما خلفاء الله فى الأرض رسله وأنبياؤه » . . ! !

ومَنع الدعاء له فوق المنابر فى خطبة الجمعة . وأرسل بذلك كتاباً حازماً إلى ولاته فى جميع الأقاليم ، قائلا فيه :

« مُروهم فليصلوا على النبى عليه السلام . وليكن فيه إطناب دعائهم وصلاتهم . .

« ثم لِيُصَلُّوا على المؤمنين والمؤمنات . .

« ولْيَستنصِروا الله . .

« وليكن دعاؤهم لعامَّة المسلمين . .

« ولْيدَعوا ماسوى ذلك » ! !

* * *

وإذا كان قد حمل وأهلُ بيته معه مسئولية القدوة على هذا النحو المجيد والفريد . . إذا كانوا قد حملوها طائعين راغبين ؛ فإن هذا لايكفيه ، بل لابد أن يحملها أيضاً أمراء بنى مروان جميعاً طائعين إن شاءوا . . وإن أَبوْا فكارهين . . ! !

لن يَدَعهم يتبذَّخون باسمه ، ويتخذون من قرابته ملجأً ومغنَماً .

إذا كان ولابد ، فلتكن هذه القرابة ملجأً لهم من أطماعهم وشهواتهم . . ومَغْنَماً بالْتزامهم منهج أمير المؤمنين . . ! !

أما دون ذلك ، فلن تكون دنياهم فى عهده كدنياهم قبل عهده . . لن يَظَلّوا طبقة فوق الأمة . . ولن يُدْلِف إلى قصورهم وجيوبهم ثلث الدخل العام للدولة ، كما كان أمرهم من قبلِ أن تُهِلَّ على الدنيا أيام الأغَرِّ ابن عبد العزيز . . ! !

ولقد راحوا بكل ضراعاتهم يحاولون الإبقاء على بعض امتيازاتهم ، فلما أخفقوا راحوا يُناورون ، ولما أخفقوا ، راحوا يهددون . .

ولكن رجل القداسة وقف لهم كالقدَر ، وأحكم وضع الشكائم على غرورهم وأهوائهم ، ثم دفع بهم جميعاً أمامه على طريق العدل والحق . مُصَفِّياً ترفَهم المنهوم . . ! !

حدث يوماً أن أرسل إلى كل أمير وأميرة بقدر من المال يدبرون به أمورهم ، ويستقبلون به حياتهم الجديدة الخشِنة ، فتنادَوْا واجتمعوا ، وقرروا أن يوفدوا إليه صديقاً له يرجوه باسمهم أن يرفع لهم العطاء . .

فكان جوابه لهذا الصديق :

« والله لقد ندمت على هذا الذى أعطيته إياهم ، وإنى لأعلم أن فى المسلمين من هو أحق بهّ ، وأحوج إليه منهم » . . !

وعاد مبعوثهم إليهم يَقرع أسماعهم بكلماته المنذرة ، ويقول لهم :

« يابنى أُميَّة . .

« لاتلوموا إلا أنفسكم ، فقد عَمَدْتُم إلى صاحبكم عبد العزيز بن مروان » فزوجتموه حفيدة « عمر بن الخطاب » فجاءتكم بعمر بن

الخطاب ، ملفوفاً فى ثياب « عمر بن عبد العزيز » ، فلا تلوموا إلا أنفسكم » ! ! !

* * *

ويعود الخليفة ليضع كلتا عينيه على الولاة والقضاة ، والأمناء على الأموال العامة – أولئك الذين سمعناه من قبل ينعتهم بأنهم والخليفة معهم يشكلون أركان الدولة والسلطان .

لقد كان يرى أن الولاة ؛ بحكم كونهم نوابه فى حكم الأقاليم .

والقضاة ؛ بوصفهم أهل الفصل فى مصاير الناس بما يملكون من كلمة الشريعة والقانون .

وأمناء بيوت المال ؛ بما لهم من سيطرة مباشرة على الأموال العامة وأرزاق الناس .

نقول : كان يرى فى هذه المناصب أخطر مناصب الدولة وأكثرها ثقلاً وحساسِية . . كما كان يرى فى استقامة أمرها العاملَ الأول والأهم لتمكين الخليفة من حمل مسئولياته فى قسطاس وسَداد . .

وهكذا راح القديس يستكمل سِماتِ القدوة للدولة ، باختيار وُلاته ، وقُضاته ، وأمنائه فى حرص من يختار عاقِبَته ومَصيره ! !

ولقد كان من المفروغ منه ، أنه لن يجد من هؤلاء من هو فى مستوى ورعه ، وشموخ نُسكه وفضائله ، فراح يجتهد فى العثور على من يكونون فى مستوى رَجائه وثقته . .

وسارَع ، فعزل جميع الولاة السابقين الذين عملوا فى خدمة المظالم السابقة . ثم ولَّى مكانهم من اصطفاهم للمهمة الجليلة أمثال : « أبى بكر بن

حزم » و« عبد الرحمن القشيرى » و« عدىّ بن أرطاة الفِزارى » وآخرين من طرازهم وإخوانهم :

وكان أول ما أوصاهم به ، هذه الوصاة الجامعة الرائعة :

« كونوا فى العدل والإصلاح والإحسان ، بقدر من كانوا قبلكم فى الظلم والفجور والعدوان » . . ! !

كذلك ، كان أول ماقدم به ولاته للناس هذه الكلمات الأمينة :

« إنى قد وليت عليكم رجالاً . .

« لاأقول : إنهم خياركم ، ولكنى أقول : إنهم خير مِمَّن هم شرٌّ منهم » ! !

إنه رجل يضع ذاته كلها فوق الميزان . . وإن كل حركاته وكلماته وقراراته ، ومشاعره لتتحرك بقدَرٍ معلوم . ! !

ويمضى ولاته إلى أقطارهم ، ويسهرون على مسئولياتهم فى ولاء صادق . . تقودهم على الطريق وتثبت أقدامهم وخطاهم سيرة خليفتهم العادل القديس . . هذه السيرة التى كان أريجُها ينتشر انتشار الضياء ، وعبيرُها يفوح ويهُبّ هبوب الرياح والبُشْرَيات . . ! !

لقد راحوا يخجلون من كل تقصير يَبدُر من أحدهم . . وإذا سوّلتَ لأحدهم نفسُه . شَفاها من وساوسها بمجرد تَذكرٌ خليفته القديس فى حياته الشظِفَة ، ورِقاعهِ البالية ! ! !

وراح الخليفة يُوَاليهم برسائله ووصاياه . . وصية من بعد وصية وكتاباً وراء كتاب . .

لنقرأ واحداً من هذه الكتب :

« . . أما بعد

« فإن من ابْتُلى من أمر السلطان بشيء ، فقد ابتلى ببليّة عظيمة ! !

« فنسأل الله عافيته وعونه . . ؛

« وإنى أدعوك أن تقف نفسك فى سِرك وعلانيتك ، عند الذى ترجو به النجاة من ربك . .

« تذكَّر ماسلف منكُ من خطأ فأصْلِحه ، قبل أن يَتولّى صلاحَه غيرُك . .

« ولا يمنعك من ذلك قول الناس . .

« وكن لمن ولاك الله أمرهم ناصحاً فى دينهم وأعراضهم . .

« واسْتُر كل عَوْراتِهم . .

« واملكِ زمام نفسك تجاههم إذا هَوِيت ، وإذا غضبت » ! ! !

* * *

وكما أحسن اختيار وُلاته ، أحسن اختيار قضاته ، وأمناء بيوت المال . .

وأمر هؤلاء وأولئك ، أن يختاروا معاونيهم وموظفيهم من الأمناء على دين الله ، ودنيا الناس .

وراحت أضواء قداسته وقدوته تتعالى وتتعاظم حتى كانت منارات هادية ، وَسِعت الدولة كلها والأمة جميعها بأنوارها الغامرة وهُداها الوثيق . .

* * *

« وثانياً » : الشُّورَى ضرورة . .

وننتقل الآن إلى المحور الثانى من محاور منهج الحاكم القديس

وأسلوبه ، لنشهد له تجاه الشورى موقفاً فذًّا يمتاز بالعمق وبالشمول .

لقد أدرك أن كل مايَشيده من دنيا صالحة ، وعالَم قويم ، لن يكون ثمة ضمان لاستمراره وإنمائه سوى سياج منيع يصونه ويحميه . . وتمثّل له هذا السياج فى توسيع قاعدة المسئولية حتى تنتظم أصحاب الحق فيها ، حاكمين ومحكومين . .

والسبيل لذلك ، الشورى الخالصة الصادقة . . وبَعْثُ رأى عام ناصح ، وصادق ، وشجاع . ينقُد الأخطاء ويُسهِم فى إصلاحها .

لم يكن عصره قد عرف النظم البرلمانية بعد . . لكن ديمقراطية الحاكم مع ذلك كانت تَبِينُ وتُسْفِر كالشمس من خلال أسلوبه فى الحكم ، وطريقته فى اختيار ولاته وبطانته ، واستعداده لتقبل النقد ، وسماع كلمة الحق . ونظرته إلى الأمة التى يحكمها ، ومدَى ولائه لحقوقها وحرياتها . .

وبهذا المعيار والمِسْبار ، يقف « عمر بن عبد العزيز » فى هذا المجال وكأنه نسيج وحده ! ! !

لقد أحاط نفسه بالأبرار الذين لايخافون فى الله لومة لائم ، والذين لا يُزيفون اقتناعهم ، ولا يَلْبِسون الحق بالباطل ، وإن قطعت منهم الرقاب . .

جمعهم حوله ، يفكرون معه . . بل لقد كان يوصى بعضهم أن يجلس تِلْقاءه وهو فى مجلس الحكم ، ويضع عينيه المفتوحتين على حديثه ، وحركاته ، فإن نَسِيَ فقال كلمة ، أو أتى حركة فيها شبهة من خطأ ، نبهوه على الفور بإشارة ، تعارَف وإياهم عليها . .

* * *

لقد آمن بأن الشورى ضرورة ، وليست تَرفاً . . وآمن بأنها كلما اتسعت قاعدتها ، استقام الحكم وشاع الحق ، واستَوْثَق العدل ، وعاش الناس كما يريد لهم دينهم وكما ولدتهم أماتهم أحراراً . .

من أجل ذلك ، راح فى سرعة الضوء يخلُق رأياً عاماً صادقاً أميناً ، فى طول الدولة وعرضها . .

وراح يضع الحاكمين والمحكومين وجهاً لوجه أمام مسئوليتهما المشتركة ، بل الواحدة فى دَحْضِ الخطأ والتزام الصواب . .

فيكتب للولاة قائلاً :

« إنكم تَعدُّون الهارب من ظلم إمامه عاصياً ،

« ألا إن أَوْلاهما بالمعصية الإمام الظالم » ! ! !

ثم يكتب للناس فى شتىّ الأقاليم قائلاً :

« أىّ عامل من عمالى رغب عن الحق ولم يعمل بالكتاب والسنة فلا طاعة له عليكم . وقد صيّرتُ أمره إليكم ، حتى يُراجع الحق وهو ذَميم . . . ! ! »

ويرسل إلى أحد وُلاته قائلا :

« قد كَثُر شَاكُوك . . وقلَّ شاكِرُوك . . فإمَّا اعتدَلْت ، وإما اعتزَلْت » ! ! !

هكذا رفع سلطة الشعب فى وجه سلطة الحكم ، وأسلم نَواصِى ولاته وعماله للرأى العام يقودهم على طريق الحق طائعين أو كارهين .

ولكى يَدْعَمَ هذه السلطة ، فتح أبوابه على مصاريعها لكل شاكٍ أو متظلم من حاكمه وواليه . . وأرسل منشوراً موجزاً إلى جميع الأقطار :

« مَن ظلمة إمامه مَظلمة ، فلاَ إذْن له علىَّ » . .

أى ليقتحم عليّ دارى ، غيرِ منتظر إذناً ، وغير واقفٍ بباب ! !

* * *

وإنه لَيبهرنا أسلوبه الفريد فى بعث الرأى العام الشجاع ، وتزكية حرية النقد ، وشدِّ زنادها إلى أقصاه . .

فى سبيل ذلك ، نراه يرسم من بيت المال جوائز مغرية لكل مَن يكشف عن خطأ ، ويَهدى إلى صواب . . ! ! !

ولْنطالع فى إجلال ، المنشور الذى كتبه ، ثم أمر أن يُقرأ على الناس فى المواسم والمحافل والمجامع . .

« أما بعد . .

فأيما رجل قدم علينا فى مظلمة نردّها ، أو أمر يُحيي الله به حقًّا ، أو يميت باطلاً ، أو يجىء بخير . . فله منا مابين مائة دينار إلى ثلثمائة دينار . بقدر ما يتكاءدُه فى ذلك من طول السفر وبُعد الشُّقَّة » . . ! !

أليس عجباً هذا الذى نقرأ ونرى . . ؟ ؟

ألاَ ، وإن أعجب من ذلك ، أَن بطل هذا كله رجل لم تكن بيئته ولا عصره بقادرَيْن على تشكيل بَنانِه . .

لكنها صِبْغَةُ الله . . ومُعجِزة الإسلام . . ! ! !

ولكَم كان صادقاً حين قال :

« لو وكلَنِي الله إلى نفسى لَكنتُ كغيرى » . .

لقد راح يضرب المثل الأسمى والقدوة الباهرة فى تقبُّل النقد — هو

الذى لم يعرف الناس له خلال خلافته كلها – خطأ واحداً يستأهل النقد والتفنيد . .

ولقد كانت الغبطة تملأ روحه حين يجد مِن عامة الناس من يقول له : إلى أين ؟ ولماذا ؟ !

هنالك يُرَبِّتُ على كتفه ، ويُدنيه منه ، ويقول له :

« زِدنى ياأخى ، جزاك الله خيراً » ! !

إنه يلتمس الحكمة والصواب وراء ألسنة الصادقين حتى حين يكون أحدهم طفلاً . .

قَدِم عليه وفد من المدينة يوماً ، وتقدم من بينهم غلام صغير ليتحدث باسمهم ويعَرض قضيتهم . فتملاَّه أمير المؤمنين ، وقال له :

« يابنى . . دع القول لمن هو أسَنُّ منك »

ويبدو أن الغلام العربى الأصيل كان يحمل نُبوغاً مبكراً ، فقد أجاب الخليفة من فوره :

« ياأمير المؤمنين . .

« المرء بأَصْغَريه : قلبِه ولسانِه . .

« ولو كان الأمر بالسن ، لكان فى المسلمين من هو أحق بهذا الأمر منك » . . ! !

وفجأة ، تَنثال دموع الغبطة والفرح من عَينَىِ القديس ، ويتهلّل وجهه ، ويهتف بالغلام :

« صدقت . . صدقت »

« عظنِى يا بُنى . . . ! ! »

وإن أحد الناس ليقتحم مسجد المدينة يوماً شاهراً سيفه ، يَسُبُّ ويشتم

أمير المؤمنين على ملأ من الناس ، وعلى مسمع من المدينة وحاكمها ، فيعتقله الوالى . . ويرسل لأمير المؤمنين بأمره ويقول فى كتابه : [لقد هممتُ أن أقتله] . .

ولا يكاد عمر يقرأ الرسالة حتى يجيب عليها فوراً .

« أمَا والله ، لو أنك قتلتَه لقتلتُك به » . . ! !

ويقتحم مجلس الحكم ذات يوم رجلاً من عامّة الناس ، رافعاً عقيرته فى وجه الخليفة بكلمات تُثير غيظ الحليم . .

فما يزيد أمير المؤمنين على أن يقول للرجل :

« لَعلَّك أردتَ أن يَستفزَّنى الشيطان بِعزّة السلطان ؛ فأنالَ منك اليوم فى الدنيا ماتتقاضاه منى غداً عند الله . .

« ولكن ، لا . .

« قم ، عفا الله عنك » . . ! ! !

* * *

ومن أذكَى وأبلغ ما أدَّاه « ابن عبد العزيز » فى سبيل إنهاض رأى عام أمين على مسئولياته وقادر عليها — حَشْرُ ذلك المدِّ الطاغى لدولة الشعر والشعراء التى كانت قائمة يومذاك . .

لقد رأينا فيما سلَف من حديث ، كيف اصطنع الأمويون الشعراء لتزييف الحق ، ولتمكين سلطانهم على حساب كل القيم والأخلاقيات ، حتى لقد كانوا عقَبة كئوداً فى سبيل معرفة الحقيقة ورؤيتها . . والآن ، يتقدم البطل والقديس ، مُطلِقاً رياح الحقيقة وراء هذا الضباب فتكنسه وتُبدّده ، وتترك آفاق المعرفة نظيفة نقية مُشرقة بنور الحق وحده ! . .

لقد وقف يخطب الناس فقال :

« مَن أراد أن يَصحبنا ، فليصحَبْنا بخمس ، أو فليفارقْنا . . .

* يرفع إلينا حاجةَ من لايستطيع رفعَها . .
* ويُعيننا على الخير بجُهده . .
* ويدلّنا على مالا نهتدى إليه من الخير . .
* ولا يغتابَنَّ عندنا أحداً . .
* ولا يَعرِضَنّ لمالا يعنيه . . »

ومن الدلالة الطريفة والبالغة ، أن جميع كتب التاريخ التى تنقل هذا الخطاب ، تُتبعه بقولها :

[فانفضَّ عنه الشعراء والخطباء
وثبَت معه الزُّهاد والفقهاء . . !]

أَجل . . فمعظم شعراء عصره ، وعلى رأسهم – الأخطل ، والفرزدق وجرير ، لم يكن لهم مع هذه الخمس ولا مع واحدة منها رَحِمٌ ولا قَرابة . . ! !

فهم إمّا مادحون بغير حق . . وإما هَاجُون بغير حق أيضاً . .

وهم فى كلتا الحالتين يحرِمون الرأى العام رؤية الصديق بما ينشرون من أضاليل وبهتان . .

والآن ، يجيئهم رجل عظيم ، لاحاجة به إليهم .

فليست له عداوات ، يحتاج للشعر فى تأجيجها . .

وليس له طموح ، يحتاج للشعر فى قَرع الطبول له . .

وليست له شهوات يحتاج للشعر فى تزيينها ، ولا أخطاء بحاجه لتبريرها . .

وليس له بالسلطة ولَع ، فيحتاج للشعر فى حمايتها واستبقائها . .

ثم إنه لاوقت لديه ، ولا وقت لدى أمته لهذا الهذَر العريض الذى ملأ به الشعراء ساحة العصر الأموى كله . . ! !

وهكذا جمع عزمه ، وطرد الشعراء عن بابه ، ولم يعد أحد منهم يظفر بدرهم واحد من أموال الأمة ، مكافأة على مدح أو اتّقاءً لهَجاء . . ! ! !

وراح – أمير المؤمنين – يشرف بنفسه على إمداد الرأى العام بكل الصدق ، وبكل الحقيقة عن طريق منشوراته التى كان يرسلها للولاة ، ويبعث بها إلى شتى الأقطار . .

ولقد بدأ بدحْرِ تلك الخطيئة الفاحشة التى كان الحكم الأموى يمارسها فى سفالة . وهَى لعن « الإمام على » كرم الله وجهه على المنابر . . ! !

وأمر أن يقرأ الخطباء مكان الكلمات الآثمة – تلك الآيات الطاهرة :

« ربَّنا اغفر لنا ، ولإخواننا الذين سَبقونا بالإيمان ، ولا تجعَلْ فى قلوبنا غِلاًّ للذين آمنوا . ربنا إنك رءوف رحيم » . .

« إن الله يَأمُر بالعدل والإحسان ، وإيتاءِ ذى القُرْبَى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى – يَعِظُكم لعلكم تذكَّرون » . .

لقد وضع الكذب ، ورفع الصدق . .

ودحرَ الباطل ، وآزر الحق . .

وكان ذلك إسهاماً فعّالاً فى إنهاض رأى عام حَصيفٍ وأمين . .

وأميرُ المؤمنين – عمر – لا يدرك عظمة الشورى وقيمتها إدراك حاكم عادلٍ صالح فحسب . . بل إنه ليدرك كذلك جوهرها إدراك فيلسوف . . ! !

فهو لايرى فيها مجرد تنظيم عادل لعلاقة السلطة بالأمة ،وتبادُل

المسئولية تِجاه الدولة والمجتمع . . بل يَمضى فى اتجاه التحليل النهائى لجوهرها ووظيفتها ، ليرى ذلك متمثلاً فى ظَفر كل فرد من الناس بحقه فى اختيار اقتناعه . . وحقٍّ هذا الاقتناع فى التعبير عن نفسه ، فى غير زيف أو غُموض . . . .

ذلك أن الناس حين يُزيفون اقتناعهم بسبب رغبة ، أو رهبة ، فإنه يستحيل فى الوقت نفسه ، وللسبب نفسه معرفة آرائهم . .

ومادامت الآراء الصادقة هى مادّةَ الشورى وأداتَها ، فإن اختفاء هذه الآراء إذن ، يُعتبر وَأْداً للشورى وإلغاءً لمهمتها . .

وهنا تُطِل علينا عظمة القديس « عمر » وهو يضع اقتناع الناس — حتى حين يخالفهم ويخالفونه — موضع القبول والتقدير . .

والوقائع التى تحكى وَلاءه الوثيق لحرمة الاقتناع تزدحم بها الشهور التسعة والعشرون التى قضاها خليفة وإماماً . . لكننا نختار منها هذه الواقعة التى تكاد تعطينا التعبير النهائى لهذا الولاء . .

لعلنا نعرف الكثير عن الخوارج الذين انشقّوا على « الإمام علىّ » كرم الله وجهه ، حتى اغتاله واحد منهم . . هؤلاء الذين تحوّلوا بعد ذلك ، وخِلال العصر الأموى إلى فرق كثيرة ، حملَت سيوفها وخاضت ضد الدولة معارك كُثُراً ذهب منهم خلالها ألوف الضحايا . .

وبالإضافة إلى نشاطها المسلّح هذا ، فقد كان لبعضها آراء وعقائد لايزكيها قرآن ولاسُنة . .

ومع ذلك كله ، نرى الخليفة العابدَ الأوّاب لاينسى حتى فى فِتنهم هــذه ، حقّهم فى أن يكون لهم اقتناعهم ، ثم لاينسى واجبه فى احترام هذا الحق لهم ، وواجبه فى إعطائهم فرصة التعبير عن رأيهم بصوت مرتفع ،

مادام نشاطهم لايتحول إلى عمل إرهابى يستهدف سفك دماء الآخرين الذين يخالفونهم فى اعتقادهم واقتناعهم . .

بل إننا سنراه يرى بحصافته الباهرة ، أن السبيل الأمثل لصرفهم عن التآمر والإرهاب ، هو رفع الغطاء عن البخار المحبوس ، وتمكين الرأى الحبيس المكبوت من الانطلاق ، قبل أن يتحول داخل نفس صاحبه المقهورة إلى حِقد موتور ، وقذيفة رَعْناء . . ! ! !

وهكذا ، لاتكاد إحدى تلك الفرق تتحرك فى الأيام الأولى من خلافته ، مستأنفة تمردها المسلح ، حتى يُرسل إلى زعيمها هذا الكتاب :

« أما بعد . . .

« فقد بلغنى أنك خرجت غضباً لله ولرسوله . . ولستَ أولى بذلك منى . .

« فَهَلُمَّ أُناظِرْك . .

« فإن يكن الحقّ معنا ، تدخل فيه ، وإن يكن الحق معك ، نراجع أنفسنا وننظر فى أمرنا . . ! ! »

ويقرأ الزعيم الثائر كلمات (القديس) فيخجل من نفسه ، ويلقى سلاحه . ويُرسل مَبعوثين إلى عاصمة الخلافة ، يُجريان مع الخليفة حواراً حول ما بينهما من قضايا وخلاف . ويَجرى الحوار بينهما رائعاً ، صادِعاً ، تتجلّى خِلالَه موهبة – ابن عبدالعزيز – فى رؤية الحقيقة ، وتوجيه المنطق ، وامتلاك الأفئدة والعقول . . . ! !

ثم تكون عاقبة هذا الموقف العظيم ، أن تُلقى تلك الفرقة المتمردة سلاحها – بعد ماتبينت أنها فى عصر رجل جديد ينتمى لعصر النبوة والوحى . . رجل يخجل الشيطان نفسه أن يَشْغَبَ عليه ، أويتحدّاه . . ! !

على أن لهذه الواقعة – برغم دلالتها المفيضة – مثيلاً آخر يكمل الصورة التى ترسُم ولاء هذا الخليفة العظيم لحرية الرأى وحُرْمة الاقتناع .

فهو على الرغم من معرفته بفساد الكثير من منطق الخوارج وحججهم ، لم ير القوة قط سبيلا لِدحْض هذا المنطق وإسكاته – بل رأى أن قيام منطق أهدَى ، وحجة أوضحَ وأصدقَ ، هو السبيل لإظهار الحق وإخماد الباطل .

وهكذا نلتقى به ، وقد قامت فرقة أخرى من الخوارج – هم « حَرُورِيَّة المُوصِل » يَسيحون فى البلاد ناشرين آراءهم وأفكارهم . . ويكتب إليه حاكم الموصل ، يستأذنه فى قمعهم وإسكاتهم . .

أقول : نلتقى بأمير المؤمنين يجيب واليَه فيقول :

« إذا رأوا أن يَسيحوا فى البلاد فى غير أذًى لأهل الذمَّة . . وفى غير أذًى للأمة . . فليذهبوا حيث شاءوا . .

« وإن نالوا أحداً من المسلمين ، أو من أهل الذمّة بسوء ، فحاكمهم إلى الله . . »

بالله ، ما أعدلَه . . وما أروعه . . ! !

إنه لايرى لنفسه حقًّا – أىّ حق – فى الحجر على آراء الآخرين ولا فى الوصاية عليها . .

وهو – كحاكم – لايرى لنفسه أى حق فى التدخّل إلا حين يواجهه خطر مسلح يتهدد سلامة الدولة والأمة

أما دون ذلك ، فلكل رأىٍ حرمته ، ولكل اقتناع حقه وحريته . .

وهذا النهج الراشد السديد ، هو الذى مكَّن للشورى فى عهده تمكيناً تكاد تتقطع دون بلوغه أنفاس كل الديمقراطيات . . . ! !

ولطَالما قالوا له يومئذ : إن هؤلاء الخوارج ينشرون بين الناس أفكاراً زائفة ، ويَلبِسون الحق بالباطل ، وإنَّ تركهم يجوبون البلاد بعقائدهم هذه ، عمل يُنذِر بسوء مَآب . .

فلا يزيد القديس العادل على أن يُذكِّر مُحدثيه ومُحرِّضيه بآيات القرآن العظيم التى نهى الله فيها رسوله عن أن يَسُوسَ ضمائر الناس بالقَهر والبطش . .

« أفأنتَ تُكْرِه الناسَ حتى يكونوا مؤمنين » . . ؟

* * *

« وما أنتَ عليهم بجبَّار » . . ! !

« إنما أنت مُذكِّر ، لَسْتَ عليهم بمسَيْطر » ! !

ولقد وقفتِ العواقبُ بجانبه ، وأثبَتت صدق رأيه وذكاء تقديره . فالخوارج الذين لم يضعوا سلاحهم يوماً واحداً منذ حكم معاوية ، حتى سليمان بن عبدالملك ، والذين لم تَزدهم كثرة ضحاياهم إلا إمعاناً فى التحدّى وضَراوة فى القتال . . نراهم فى عصر هذا القديس الجليل يَغمِدُون سيوفهم ، وينسَوْن طوال عهد خلافته كل مالهم عند الأمويين من تِرات ، وثارَات . . . ! !

* * *

« وثالثاً » : المال وَديعة . .

وأمامَ المشكلات الاقتصادية ، ومُشكلات الدخل والتوزيع التى تحير الدول فى كل العصور والأزمان ، لم تأخذ « عمر » حَيرة ، ولم تُعْضِله أزمة . .

ذلك أنه مؤمن بأن الحق والعدل قادران على تدبير أمرهما أعظمَ وأهدى مما تدبر ألمع عبقريات التنظيم والاقتصاد . .

والدولة المسلمة – يومئذ – لم يكن ينقصها المال . . إنما كان ينقصها اتباع الحق فى تقاضِيه . . واتباع العدل فى توزيعه . .

وقبل هذين ، بَعثُ حرمة الأموال العامة وقداستها فى ضمير الدولة ، بكل مسئوليها . . وفى ضمير الأمة ، بكل أفرادها . . إن موقفه من الثروة القومية ، يبدأ من إيمانه بقول الله تعالى :

[وأَنفِقوا مما جعلكم مُستَخْلَفين فيه] .

فمصادر الإنتاج ، والإنتاج ، والثروة . . كل ذلك إذن وديعة الله عند الناس . . دُولاً ، وأمماً ، وجماعات ، وأفراداً . .

ولوِدائع الله هذه حُرمتها التى تنأَى بها عن التلَف ، والسرَف والبغى ، والاحتكار . .

فإذا اكتسَبت هذه الودائع صفة أخرى ووصفاً آخر ، فصارت أموالاً عامة ، فإنّ حُرمتها وقداستها تربو وتزداد . .

ذلك أن معنى كونها [أموالاً عامة] أنها حقوق شائعة وثابتة لكل أفراد الأمة . . لكل أرملة فيها وكل يتيم . . لكل مُسنٍّ وطفل ، ورضيع . . لكل فقير ، وعاجز ، ومريض . .

وهى بهذه المثابة . مَثابَة أنها – أولاً – ودائع الله ، و – ثانياً – حق الناس ، جميع الناس . . تتمتع بحرمة بالغِة وقداسة وُثْقَى . .

و« ابن عبد العزيز » يرى نفسه مسئولاً عن إعلان هذه الحرمة وصيانة هذا الحق . .

وإنه لَيعبِّر عن ذلك فى كلماته الفاصلة :

[إنما أنا حَجِيجُ المسلمين فى مالهم] ! !

كما يُعبّر بسلوكه تجاهها تعبيراً يبهر الألباب . .

إنه يرسل خادمه يوماً ليسخّن له الماء كي يتوضأ به فى يوم شات زمهرير . .

ويعود الخادم مسرعاً بالماء الدافىء ، فيسأله الخليفة : أين أدْفَأه بهذه السرعة . . ؟

فيجيب الخادم : فى مطابخ المسلمين . .

وكان – عمر – قد توسع فى إنشاء مطابخ عامة للناس يُنفق عليها من بيت المال

فعاتب الخليفة خادمه على صنيعه ، ورفض أن يَمَسَّ الماءُ جسده حتى يذهب الخادم إلى القائم على هذه المطابخ بثمن تسخين هذا القدر الضحل جداًّ من الماء . . ! ! !

وإنّا لَنعرف تلك الواقعة المتواترة ، حين كان يباشر أمور الدولة ليلاً على مصباح يُؤخذ زيته من بيت المال ، فإذا عرض له فى أثناء ذلك طارئ شخصي – ولو كان لايستغرق سوى لحظات – فإنه يطفئ مصباح بيت المال ، ويُوقِد شمعته أو مصباحه ، حتى ينتهى من ذلك الطارئ . . ! !

ولقد يرى البعض فى هذا المسلك نوعاً من التزُّمت المغرِق . .

ولقد يرون فى إعطاء هذه الشكليات العابرة كل هذا الاهتمام الورع من رئيس دولة عظمى ، كالدولة التى كان يحكمها – ابن عبد العزيز – أمراً غير مألوف . . وربما غير مُستساغ . .

غير أنهم حين يفكرون على هذا النحو يفوتُهم أن الذى كان يحرك اهتمام الخليفة وورعه ، لم تكن تلك الشكليات ذاتها .

إنما هو المعنى الكبير الذى يملأ ضميره ، ويشكّل سلوكه تجاه الأموال

العامة وحُرمتها وقداستها . .

وبعد ذلك يستوى أن يكون هذا المال . عَدْلَ درهمٍ من زيتِ مصباح . . أومِلء حجرةٍ فضةً وذهباً . . ! !

إنه يذكُر ، ويذكِّر الناس دائماً بالآية الكريمة :

[وَمَنْ يَغْلُلْ ، يأتِ بما غَلَّ يوم القيامة] ! !

والغُلول عنده فى أحقر الأشياء ، مِثله فى أكثرها وأخطرها . .

وفيما يستأثر به لنفسه ، مِثله فيما يجود به على غيره ! !

بل حتى الهدايا ، رآها غُلولا ، أو شيئاً يشبه الغلول . .

جاءته يوماً هدية ، فاعتذر عنها — فقيل له : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدية . .

فأجاب قائلاَ :

[لقد كانت للرسول هدية ، ولكنها لنا رِشوة] ! !

* * *

إن موقفه من أموال الأمة لَعجيب . ثم عجيب . . ! !

وإن لها فى فؤاده الذكى التقىّ لَحرمة تضاهى حرمة الإيمان ذاته ، وحرمة التوحيد . . ! !

يطلب منه أحد ولاته الإذن بمزيد من الشموع التى كانت دار الإمارة تُضاء بها ، ويُضاء بها للأمير وهو فى طريقه إلى المسجد لصلاة العشاء والفجر . .

فيجيبه الخليفة بكتابه هذا :

« لقد عَهِدتُك يا ابن أم حَزم ، قبل أن تكون والياً ، تَخرج

من بيتك فى الليلة الشاتية المظلمة بغير مصباح . .

« ولَعمرى ، لأنتَ يومئذ خير منك اليوم ، ولقد كان فى فَتائِل أهلك ما يُغنيك » ! ! !

ويكتب إليه والٍ آخر ، يطلب المزيد من الأقلام وورق الكتابة ، فيجيبه الخليفة أيضاً :

« إذا جاءك كتابى هذا ، فأَرِقَّ القلم ، واجمع الخط ، واجعل الحوائج الكثيرة فى الصفحة الواحدة . .

« فإنه لاحاجة للمسلمين فى فَضل قولٍ أضرَّ ببيت مالهم . . » ! !

هنا بيت القصيد . . [أضَرَّ ببيت مالهم] ! !

فالمشكلة ليست مشكلة قليل أو كثير من الشموع والأقلام والأوراق . . فما من دولة يعجزها أن تملأ أرضها شموعاً وأقلاماً وورقاً . .

إنما المسألة فى وعى « الحاكم القديس » هى حرمة هذه الأموال وقداستها . . هى تجنب التفريط فيها . . هى درجة الولاء لمسئولية رعايتها وحفظها . . وبهذا المعيار يصبح كل عبث بها مرفوضاً مهما تكن ضآلة مقداره . .

ذلك أن الإسراف الذى يتمثل اليوم فى شمعة أو قلم . . سيتمثل غداً – إذا استهين بأمره ، فيما هو أوخم عاقبة وأسوأ مصيراً . . ! !

* * *

هكذا أرسى لحرمة الأموال العامة قواعد راسخة من الإجلال والتقديس .

ونعود إلى موقفه من « مشكلة الدخل والتوزيع »

قلنا : إن الدولة يومها لم يكن ينقصها الثراء . . إنما كان ينقصها

تقصى الحقّ فى جمعه . . والعدل فى توزيعه . .

ففيما يتعلق بالدخل . . نرى الخلفاء قبله ، وقد أرهق الترف والسَّرَف ميزانية الدولة ، راحوا يُعوّضون ذلك بجمع المال بوسائل غير مشروعة ، وضرائب غير عادلة . .

فأهل الكتاب الذين يعتنقون الإسلام ، يضع عنهم الدين ضريبة الجزية فوراً . . لكن الدولة الأموية تأبى فى ذلك حكم الإسلام ، وتُبقى الضريبة فوق كواهل الذين أسلموا ، مسوغة ذلك بأنهم إنما يسلمون فِراراً من الضريبة . . ! !

ويجىء الخليفة العادل فيرفض هذا التسويغ الزائف ، ويُعلن أن فرح الإسلام بفرد واحد يدخل دائرة نوره وهداه ، خير من ملء الأرض مالاً وذهباً . .

ويُطلِق أمير المؤمنين كلماته المضيئة هذه :

« إن الله بعث — محمداً — هادياً ولم يبعثه جابِياً » ! !

ولقد أرسل إليه واليه على العراق « عدىّ بن أرطاة » يقول : [إن الناس قد دخلوا فى الإسلام أفواجاً ، حتى خشيت أن يقل الخراج] . .

فيجيبه الخليفة المقْسِط العظيم :

[والله ، لَوددْتُ أن الناس كلهم يُسلمون ، حتى نكون أنا وأنت حَرَّاثين نأكل من كَسْبِ أيدينا . ! ! !]

كذلك راح يتتبع كل الضرائب التى كان الخلفاء السابقون قد فرضوها على الناس فألغاها جميعها .

بل وحتى الضرائب المشروعة ، مثل زكاة الزروع والثمار ، كان يضعها عن الناس عندما تنزل بمحاصيلهم جوائح ، أو تتعرض لبوار .

هاهو ذا يكتب لواليه على اليمن « عروة بن محمد » .

« أما بعد . .

« فقد كتبتَ إلىّ تذكُر أنك قدمت اليمن ، فوجدتَ على أهلها ضريبة من الخراج ثابتة فى أعناقهم كالجزية يؤدونها على كل حال . . إن أخْصَبوا ، أو أجْدَبوا . . إن حيوا أو ماتوا .

« فسبحان الله رب العالمين ! ! ثم سبحان الله رب العالمين ! !

« إذا أتاك كتابى هذا ، فدع ما تنكره من الباطل إلى ما تعرفه من الحق . .

« واعلم أنك إن لم ترفع إلىّ من جميع اليمن إلا حفنة من كَتَم[١] . فقد علم الله أنى سأكون بها مسروراً مادام فى ذلك إبقاء على الحق والعدل » . . ! ! !

ولعل بعضنا يأخذه العجب . . فبينما كان المتوقع منا ونحن نتحدث عن « الدَّخْـــل » أن نشير إلى اكتشاف مصادر جديدة تزيده ، وموارد ثرَّة تُضاعفه وتُنمّيه ، إذا بنا نُطرِى سياسة الخليفة تجاه الدَّخل العام ، لأنه ألْغىَ الكثير من تلك المصادر والموارد . . ؟ !

ولكن ، ماحيلتنا ، وهذه فلسفة القديس المبارك الميمون — ابن عبدالعزيز — . . ؟ !

إن المسألة عنده ليست مسألة كثرة . . بل مسألة وَفرة . .

والوفرة ، تكون فى بركة الحلال المشروع ، لا فى كثرة الحرام المغتصَب . .

ولعل من واجبنا قبل أن نغادر هذه النقطة من الحديث ، أن نقول

---

(١) الكتم . نبات يخضب به الشعر ، ويصنع منه مداد للكتابة .

لبعض المؤرخين الذين يردون اضطراب مالية الدولة بعد موت أمير المؤمنين — عمر — إلى سياسته الضرائبية هذه . .

من واجبنا أن نقول لهم ! أغلب الظن أنكم مخطئون . .

فلقد سارت الأمور فى عهده كله على أتم نَسق . ولم تكن تُنذِر بأى عجز أو اضطراب . بل كانت على العكس من ذلك تُرهِص وتبشر بمزيد من النماء والرخاء والاستقرار .

إنما اضطربت فيما بعد ، حين غابَ — البطل — عن مسرح العدالة والحق . . وعاد الترف والسَّرف والفساد ، وسياسة السطو مرة أخرى تعبث وتمرح ، بعد أن رحل الحارس اليقظ ، والحاكم القدِّيس . . ! !

* * *

على أن — الخليفة — حين ألغى الضرائب الظالمة ، أتاح فى نفس الوقت مورداً ثَرًّا للدولة ، حين ردَّ إليها جميع الأرض والثروة التى كانت تحت أيدى الأمراء .

ومورد آخر ، اعتبره أمير المؤمنين من أعظم مصادر الدخل وأثراها . . ذلكم هو وضع كل درهم فى مكانه وضرورته . . وتحريم كل تبذير ، وتحريم كل سَرَف . .

أجل . . لقد كان — ولايزال — وضع المال فى مكانه الصحيح وداخل ضرورته المِلحّة وحدها ، خير مورد وأبقى مصدر . .

ولقد التزم — عمر — هذا النهج التزاماً يكاد يكون مطلقاً مع نفسه ، ومع أهله ، ومع ولاته ، ومع ذوى قرباه ، وأصدقائه ، والناس أجمعين .

هاهو ذا أحد المقربين إليه ، الأثيرين لديه — عنبسة بن سعيد —

يذهب إليه يوماً ، يسأله حاجة لنفسه .

فلنطالع جواب الخليفة له :

« ياعنبسة . .

« إن يكن مالك الذى عندك حلالا ، فهو كافيك .

« وإن يكن حراماً ، فلا تُضيفَنَّ إليه حراماً جديداً . .

« أخبرنى ياعنبسة . .

أمحتاج أنت . . ؟ لا . .

أفعليك دين . . ؟ لا . .

« إذن ، فكيف تطمع فى أن أعَمد إلى مال الله فأعطيكَهُ فى غير حاجة . . وأدَع فقراء المسلمين ؟ !

« لو كنتَ غارماً ، لأديت عنك غُرمَك . . أو محتاجاً لأمرت لك بما يصلح شأنك . .

« فليكن لك فى مالك غَناء . .

واتق الله – وانظر من أين جمعته ، وحاسب نفسك قبل أن يحاسبك أسرع الحاسبين » . . ! ! !

إن هذا الذى قاله لصديقه الحميم « عنبسة » كان يقوله لكل من يسأله ماليس له بحق . . على أن هذا الذى هو حق فى تقديره ، لم يكن يتمثل عنده إلا فى ضرورات العيش والحياة .

وهكذا أتيح له أن يحول شَهقات البائسين إلى بسمات متهللة ، وفرح غامر ، دون أن يحول السَّرَاة إلى طبقة بديلة للبائسين .

إن كل ماصنعه بهم أنه أخذ منهم تَرفَهم وتُخمتهم ، ثم تركهم يحيون كراماً متواضعين . . . ! !



وهنا ينقلنا الحديث من الدخل ، إلى التوزيع . . فكيف راح الحاكم القديس يوزع أموال الأمة ، وأين كان يضعها . . ؟ ؟

لقد رد المال إلى وظيفته الحقيقية ، وإلى دَوْره الأصيل ومسئوليته الأولى فى خدمة الأمة وتغطية احتياجاتها .

لقد بدأ . فرسم حدود الكفالة الشاملة التى ستنهض بها الدولة تجاه مواطنيها جميعاً فرداً ، فرداً . . وحدد بالتالى مسئولية بيت المال تجاه تغطية هذه الكفالة كلها .

نرى ذلك فى كتابه إلى وُلاته :

« لابد لكل مسلم مِن :

* مسكن يأوى إليه . .
* وخادم يكفيه مهنته . .
* وفرس يُجاهد عليه عدوه . .
* وأثاث فى بيته . .

« فوفروا ذلك كله . .

« ومن كان غارماً ، فاقضوا عنه دينه » . . ! ! !

والتعبير بكلمة « مسلم » هنا . . لاتعنى قَصْرَ هذه المزايا بل الحقوق على المسلمين وحدهم ، إنما استعمل هذا الوصف لِغَلْبته لا أكثر . . ثم كانت هذه المزايا والحقوق من حق المواطنين جميعاً — مسلمين وأهل كتاب . . . .

وأمر الخليفة ولاته أن يبدأوا بتغطية حاجات أقطارهم . وما فاض وبقى يُرسَل إلى الخزانة العامة . . ومن قصر دخل إقليمه عن تغطية حاجات

أهله ، أمدّه الخليفة بما يغطّى عجزه .

« استوعِب الخراج وأحرِزه فى غير ظلم . .

« فإن يك كافياً للناس ، فحسناً . . وإلا فاكتب إلىّ حتى أبعث إليك من المال ماتوفر به للناس أُعطياتهم » . . ! !

* * *

وراح « المبارك الميمون » ينشئ فى طول البلاد وعرضها دُور الضيافة ، يأوى إليها المسافرون وأبناء السبيل . .

ومضى ، يرفع مستوى الأجور الضعيفة . .

وكفَل كل حاجات العلماء والفقهاء ليتفرغوا لعلمهم ورسالتهم دون أن ينتظروا من أيدى الناس أجراً . .

وسخَا علَى ولاته برواتب كبيرة ، حتى يتفرغوا لمهامّهم وحتى لاتضعف نفوسهم أمام إغراء الحرام . . . ! !

وعلى طول الدولة وعرضها كذلك ، أمر لكل أعمى بقائد يقوده ويقضى له أموره على حساب الدولة . .

ولكل مريض أو مريضين بخادم ، على حساب الدولة . .

وأمر ولاته بإحصاء جميع الغارمين ، فقضى عنهم ديونهم . .

وافتدى أسرى المسلمين جميعاً ، وأغدق عليهم العطاء . .

وكفَل اليتامى الذين لاعائل لهم فى جميع أقطار دولته العريضة المترامية . .

وكما فعل جده العظيم – عمر بن الخطاب – من قبل ، فعل هو أيضاً ، فأمر أن يُفرض لكل مولود راتبه وعطاؤه بمجرد ولادته ، وليس بعد

فطامــه ، حتى لاتتعجل الأمهات فِطام الرضَعاء فيتعثر نموهم ، وتضمحل قُواهم . . ! !

ومن أجل ألاّ يتحول عطاء الدولة إلى فرصة للطامعين ، منَع أن يجمع أحد بين عَطاءين . .

وحرم على جميع العاملين والموظفين ، الجمع بين راتبين مهما تكن الأسباب . ! ! !

* * *

وهكذا تقسَّط الناس جميعاً فى عهده العظيم ماأفاءه الله عليهم من خير ورزق .

وإنا لَنكاد نَذهل أمام ذلك الإجماع التاريخى الذى يحدثنا عن اختفاء الفقر والفقراء فى عهد القديس الورع ، « عمر بن عبدالعزيز » ، حتى لقد كان الأغنياء يخرجون بزكاة أموالهم فلا يجدون فقيراً يأخذها – ويبسط يده إليها . . ! ! !

ذلك أن عدل – ابن عبدالعزيز – لم يكف الناس حاجاتهم فحسب . . بل ملأهم شعوراً بالكرامة والقناعة ، فلم تعد تستهويهم الصدقات مهما تكن كبيرة وكثيرة ، بعد أن أغناهم الله من فضله بالحق ، وبالعدل ، وبعبده الصالح « عمر بن عبد العزيز » ! ! !

« ورابعاً » : وحدة الأمة وسلامها . . .

كان الخليفة الصالح قد ورث مجتمعاً ممزقاً يتربص بعضُه ببعضٍ الدوائر . . ويتربص كله بالدولة الدوائر . . ! !

فخلفاء بنى أمية ، كانوا يتوسلون لدعم نفوذهم وسلطانهم بشحذ العصبية والقبلية والإقليمية ، فيختص أحدهم بعطفه القيسية ، ويختص آخر اليمانية . . ويميز أحدهم أهل الشام . . ويميز آخر أهل العراق . .

وانتقلت العدوى من الخلفاء والولاة إلى القبائل وزعمائها ؛ فظهر من ينادى بسيادة أهل الحضَر – وفى مواجهتهم ، ظهر من ينادى بسيادة أهل البادية . .

كذلك كان الخلفاء الأمويون قد جنَحوا للهبوط بمكانة المسلمين من غير العرب – أولئك الذين عُرفوا باسم « الموالى » ففرضوا عليهم الجزية ظلماً ، وحرموهم الحقوق التى يكفلها لهم الإسلام ، على الرغم من بلائهم العظيم ، وبزوغ صفوة منهم حملت لواء الإسلام عالياً فى كل مجال . . !

كذلك كان هناك الفِرَق الكثيرة من شيعة وخَوارج ومُعتزلة منهم من يحمل السلاح فى وجه الدولة وفى وجه خصومه فى الرأى ومنهم من لا يحمل السلاح ولكنه يحمل الكلمة المسمومة . . ومنهم من يلتزم حدود المنطق والحِجاج . .

* * *

ورِث « القديس » المجتمع على هذا التمزق والتشتُّت ، فنفخ فيه من روحه الطاهرة الظافرة نفخة مباركة نفَتْ عنه فى لحظة كل هذه الخبائث . وطهرت – لاشكل المجتمع وعلاقاته الظاهرة فحسب – بل ضميره وروحه أيضاً – فشهد مجتمع الإسلام فى أيامه إخاءً وثيق التراحُم . . وأخذ كلٌّ حقه . . وقنع كل بحقه . . ! !

فأما عن الخوارج ، فقد رأينا كيف أسكتهم بالحجة والبرهان .

وأما الموالى ، فقد وضع عنهم إِصْرَهُم ، وصحَّح وضعهم .

وأما النزعة القبلية والإقليمية ، فقدطواها بيمينه . .

ولم يعد هناك قيسيون ويمنيون . . ولا عراقيون وشاميون . . ولا عَرب ومَوالى . .

لقد عادت رَحِمُ الإسلام تنتظم جميع أبنائه كالعقد المنظوم ، وسيطرت من جديد روحه العظيمة المتمثلة فى قول الله تعالى :

[إنما المؤمنون إخوة] . .

* * *

ولم يقف تصور « ابن عبدالعزيز » لوحدة الأمة عند هذه الحدود وحدها . . بل امتد إيمانه بالوحدة وفهمه لها إلى وضع الأقليات فأكد دمجها فى جسم المجتمع المسلم ، وصان لها كل حقوقها .

ولقد رأينا فى رسالة مرت بنا من قبل ، أرسلها لأحد ولاته بشأن بعض الخوارج فقال له :

« إن ساروا فى الأرض دون إساءة لأهل الذمة ، وللأمة ، فدَعْهم » . .

وفى كتب كثيرة لولاته ، نراه يؤكد على الوصاة بأهل الذمة ، أولئك الذين أسماهم الإسلام – أهل الذمة – توكيداً لما فى ذمّه المسلمين لهم من عهد وميثاق . . ! !

لقد كانوا إلى يوم استخلافه ، يلاقون الكثير من العنت . ويقبعون تحت وطأة ضرائب ظالمة . . فما كاد يتولى أمر الأمة حتى أصدر أوامره الحازمة بألا يؤخذ منهم سوى الضريبة التى شرعها الإسلام لقاء حمايتهم وتوفير الأمن لهم .

وإن موقفه من قضية « كنيسة يوحنا » بدمشق لمثَل رائع وباهر على عمله العظيم والنبيل لدعم وحدة الأمة كافّة . بصرف النظر عن اختلاف الدين والجنس واللون فيها . . ! !

كان « الوليد بن عبد الملك » قد هدم جزءاً كبيراً من كنيسة « يوحنا » ، ليقيم عليه امتداد المسجد الأموى المشيد . .

وحين ولى – عمر بن عبدالعزيز – الخلافة . شكا إليه نصارى دمشق ما حدث لكنيستهم . .

تُرى ، ماذا يصنع أمير المؤمنين ؟

إن الجزء الذى تهدَّم من الكنيسة قد صار مسجداً . .

وإن أقصى ما يستطيعه حاكم عادل فى مثل هذا الموقف أن يعطى تعويضاً سخيًّا ، أو أرضاً بدِيلة . .

لكن « ابن عبدالعزيز » يتعامل مع العدل والحق بأسلوب مختلف عن أساليبنا . .إنه أسلوب قديس جليل ! !

وهكذا أصدر أمره العجيب بهدم ذلك الجزء الكبير من المسجد ، وإعادة الأرض التى أقيم عليها إلى الكنيسة . . ! !

ودارت الأرض بعلماء دمشق وفقهائها ، فأرسلوا وفدهم لإقناع أمير المؤمنين بالعدول عن قراره .

ولكن أمير المؤمنين ، أصدر أمراً جديداً حدَّد فيه اليوم بل الساعة التى يجب أن تتم فيها عملية الهدم والتسليم . . ! !

ولم يجد العلماء سبيلاً لإنقاذ المسجد سوى أن يُفاوضوا زعماء الكنيسة فى دمشق ، ويعقدوا معهم اتفاقاً يرضَوْنه . ويتنازلوا بموجبه عن الجزء المأخوذ من كنيستهم . ثم يذهب وفد من الفريقين لإبلاغ الخليفة نبأ الاتفاق .

فيحمد الله عليه ، ثم يقره ويرضاه . . ! !

* * *

بم إذن نُفسِّر ذلك الموقف الذى اتخذه من بعض أهل الكتاب من النصارى . حين أمر أن يعاملوا معاملة خاصة فيها تضييق عليهم ، وإحراج لهم . ؟ ؟

إننا فى ضوء موقفه العام الذى رأيناه ، لا نرى لموقفه الطارىء هذا تفسيراً إلا أن يكون قد دعاه إليه سلوك بعض أُلئك الذين عملوا كطابور خامس للامبراطورية الرومانية التى كانت تشنّ باسم الصليب – حروباً عدوانية على دولة الإسلام . .

يُزكِّى ذلك – فى رأينا – تلك الرسالة التى حملت أوامره بشأن أولئك النصارى . فقد ركّزت اهتمامها على مصادرة ما يوجد فى دورهم من سلاح . . مما يومىء إلى وجود مؤامرة كانوا يهمّون بها ، على أنه فى موقفه من هؤلاء . لم يأمر باتخاذ أى إجراء عنيف .

كل الذى أمر به أن يُميَّزوا بلباسهم الخاص . . وحتى هذا الإجراء يشير إلى الريبة التى داخلت نفسه تجاههم ، فأراد أن يميزهم حتى يكون هذا التمييز سبيلاً لكشفهم . .

فإذا جاوزنا هذه الفئة التى فقدت ولاءها للدولة وللمجتمع ، وجدنا موقفه من المسيحيين عامَّة موقف الحارس الأمين لحقوقهم ولعهودهم ولكراماتهم .

لقد أثار موقفه من الأديان ومن حقوق الأقليات فى دولته الراشدة انبهار وإعجاب العالم الخارجى من حوله ؛ حتى إن إمبراطور الروم

« ليو الثالث » وقد كان خصماً عنيداً لدولة الإسلام ، لايكاد يبلغه فيما بعد نبأ وفاة أمير المؤمنين حتى يبكى بكاء مُرًّا ، أذهل حاشيته وأساقفته ، فسألوه فى ذلك ، فأجابهم بكلمات تعتبر من أصدق وأجمع ماقيل فى تأبين أمير المؤمنين :

« مات والله ملك عادل ، ليس لعدله مثيل . . ! !

« وليس ينبغى أن يعجَب الناس لراهب ترك الدنيا ليعبد الله فى صومعته . .

« إنما العجب لهذا الذى صارت الدنيا تحت قدميه فزهد فيها . . !

« ولقد كان حَرِيًّا أن يُعجَّل به ؛ فأهل الخير لا يلبثون مع أهل الشر إلا قليلاً » . . ! !

أفكان هذا الامبراطور ليشهد فيه هذه الشهادة لوعرف عنه أدنى اضطهاد أو انتقاص لحقوق أهل الكتاب فى عهده . . ؟ ؟

بل هل كان كبير أساقفة الرومان سيخِفُّ مسرعاً حين علم بمرض الخليفة ، ليقيم إلى جواره يُطببه ويعالجه . . ؟ ؟

* * *

ونعود للعمل الذى عمله أمير المؤمنين من أجل وحدة الأمة ؛ لنرى كيف كان فى الوقت نفسه عملاً فى سبيل سلامها الداخلى :

فالسلام الداخلى ، إنما يتوفر بالقدر الذى يتجمع فيه شمل الأمة وتتآخَى أرواح بنيها . .

ولقد أنعم الله عليه وعلى أمته بما تمنى من وحدة وسلام . .

فماذا عن السلام الخارجى ووضْع أوزار الحروب التى كانت مشبوبة

الأوار خارج الحدود . . ؟

لقد رأيناه يبدأ فى الساعات الأولى من خلافته بإصدار أمره للجيش الذى أنهكه حصار القسطنطينية بالعودة .

ثم رأيناه يفتدى جميع الأسرى على كثرتهم ويردهم إلى ديارهم ووطنهم . .

ثم نراه يضع حدًّا لكل الأعمال العسكرية التى كانت تقوم بها الدولة . . ويعلن أن الإسلام قد صار عزيزا منيعاً بما تم له من فتوح ، وأن على جيش الدولة ألا يتحرك بعد اليوم لقتال إلا دفاعاً عن حدود الدولة إذا هوجمت ، وعن سلامة الأمة إذا تعرضت للأخطار . .

واستعاض عن زحف الجيوش ، بكتبه التى أرسلها إلى ملوك الهند وحكام مقاطعاتها ، يدعوهم إلى الإسلام ، فأسلم أكثرهم متأثرين بما كان قد ترامى إليهم من أنباء ورعه وزهده ، وعظمته وتُقاه . .

كذلك كتب إلى البربر ، فى أفريقية . . يدعوهم إلى الإسلام فدخلوافيه أفواجاً . .

وكتب إلى ملوك ماوراء النهر ، فأسلم أكثرهم ورفعوا راية الإسلام . .

أليس رجلاً مباركاً ذلك القديس . ؟ ؟

* * *

وخامساً : أسلوبه فى التنفيذ . .

ماذا كانت الأمة ستفِيد من ورعه وزهده وتقاه وعدله ، لو لم تكنٍ كفاءته فى التنفيذ موازية لكفاءته فى حمل المسئولية والإخلاص لها . . ؟ ؟

هنا نلتقى بجانب من أبهى وأغنى وأقوى جوانب شخصية ذلك القديس

الفطِن الحازم الأريب . . نلتقى به صاحياً يقظان . . !

إن كل ساعات اليوم الأربع والعشرين منذورة لمسئولياته . .

ليس منها سوى الوقت الذى تستغرقه صلاته وعبادته ، والساعتين أو الثلاث التى يمنحها لنومه وراحته . .

أما بعد ذلك ، فلا وقت لديه إلا لمسئوليته المقدسة .

وله أسلوب فريد فى إنجاز هذه المسئولية وتنفيذ منهجها . .

فاللين ، والحزم . . والأناة ، والحسْم . . والإشراف العميم ، واللامركزية . . والمطاولة ؛ واليقظة . . كل هذه تعمل « مجتمعة » لا « مختلطة » – فى اتساق فذّ وتكامُلٍ عجيب . . ! !

يبلغ به التعب يوماً أشده ، فيسأله بعض خاصته أن يريح نفسه ، فيقول :

« ومن يجزى عنى عمل اليوم » . . ؟

فيقولون له : تنجزه فى الغد . .

فيجيب : « لقد فَدحَنى عمل يوم واحد حتى سألتمونى أن أريح نفسى ، فكيف إذا اجتمع علىّ عمل يومين » . . ؟ ؟

إنه لا يُجرى حسابه الختامى كل شهر ولا كل أسبوع . . بل لكل يوم مسئوليته وحسابه الختامى ، ولا يحيل يوماً على آخر . لأن لكلَ يوم مُزدَحمه وأحماله . . ! !

وهو بالنسبة لعشرات الملايين التى تنتظمها دولته الواسعة . نداء النَّجْدَة . لاتهتف به حاجة فرد ولا مظلمة مظلوم فى أدنى الأرض وأقصاها إلا ألْفَتْه ، وكأنه فى انتظارها وحدها . . ! !

وصِغار الأمور عنده مثل كبارها . . لها الاهتمام نفسه والمسارعة نفسها . .

حمل إليه بريده يوماً رسالة من الجيزة بمصر . .

أما صاحبة الرسالة فاسمها « فرتونة السوداء » تشكو لأمير المؤمنين . أن لها حائطاً متهدماً لدارها يتسوَّره اللصوص ويسرقون دَجاجها ، وليس معها مال تنفقه فى هذا السبيل .

ولا يكاد الخليفة يتلو الرسالة وهو فى عاصمة خلافته بالشام حتى يكتب إلى واليه على مصر « أيوب بن شرحبيل » هذا الخطاب . .

« من عبدالله عمر أمير المؤمنين ، إلى أيوب بن شرحبيل

« سلام الله عليكم . .

« أما بعد ، فإن فرتونة السوداء كتبت إلىّ تشكو قصر حائطها ، وأن دجاجها يسرق منها ، وتسأل تحصينه لها .

« فإذا جاءك كتابى هذا ، فاركب بنفسك وحصنه لها » . . ! !

والبريد نفسه الذى حمل هذا الكتاب لوالى مصر . حمل كتاباً آخر من الخليفة لفرتونة السوداء . .

« من عبد الله عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين إلى فرتونة السوداء .

« سلام الله عليك . .

« أما بعد ، فقد بلغنى كتابك ، وما ذكرتِ فيه من قصر حائطك حيث يُقتحَم عليك ويُسرق دجاجك . .

« وقد كتبت إلى « أيوب بن شرحبيل » آمره أن يبنى لك الحائط حتى يحصِّنه مما تخافين إن شاء الله » . . ! !

يقول ابن عبد الحكم الذى روى لنا هذه الواقعة الباهرة :

« فلما جاء الكتاب إلى أيوب بن شرحبيل ، ركب بنفسه حتى أتى الجيزة ، وظل يسأل عن « فرتونة » حتى وجدها ، فإذا هى سوداء مسكينة ؛ فأعلَى لها حائطها » . . ! !

هذا خليفة قديس لن تُفلت من رحمته وحسناته وعدله وأُبوَّته شاردة ولاواردة . . ! !

ولسوف يتسع قلبه الكبير وعزمه القدير لكل شىء . .

انظروا . . ! !

إنه يَكتب لواليه على مصر أيضاً .

« أما بعد . . .

فقد بلغنى أن الحَمالين فى مصر يحملون على ظهور الإبل فوق ماتُطيق . .

« فإذا جاءك كتابى هذا ، فامنع أن يُحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل . . ! ! »

بل إنه ليبصر فى جولاته أناساً يحملون مقارع ، فى أسفلها حديدة مدببة ينخسون بها دوابهم ، فلا يكاد يستقر فى مجلسه حتى يوقع قراراً يحرم استخدام هذه المقارع . . ؟ !

وتأتيه يوماً سَلّتانْ كبيرتان مملوءتان من رُطب الأردن فيسأل : ماهذا ؟

فيقال : رطب بعث به أمير الأردن إلى أمير المؤمنين .

ويعود يسأل : وعلامَ جىء به . . ؟

فيقال له : على دواب البريد . .

فيهز رأسه ، ويقول :

« لقد حملتموها : فوق طاقتها . . بيعوا الرطب ، واشتروا بثمنه علفاً لدواب البريد التى حملته . . ! !

* * *

ويبهرنا لِينُه ، وأَناتُه ، وسعة صدره التى لم تعرف حدوداً . .

وفى تتبعنا لهذه الفضيلة لديه ، نجدها تنبع من رحمته العميقة الأصيلة – هذه الرحمة الذكية التى لم تكن تعنى مجرد الشفقة بالناس بل تعنى القيام بحقهم فى بذل العون لهم حتى يتغلبوا على نوازع الشر فيهم ، وعلى هواجس النفس ، ونقاط الضعف . .

وإنا لَنتسمَّع هذا النبض الحنون النبيل من خلال دعائه الذى كان يَضرع به إلى الله كثيراً :

« اللهم زِد مُحسِنَ أمة محمد إحساناً ، وأَرْجع مُسيئهم إلى التوبة . .

اللهم ، وحُطَّ من أوزارهم برحمتك » ! !

إنه لا يتحسس الأخطاء ، ليعاقب عليها . بل ليعالجها فى رحمة وحنان .

وإن أخطاء الناس لَتشغله إلى المدى الذى رأيناه حيث لاينظر إليها كحاكم ؛ بل كعابد . يصلى من أجل مغفرتها وإنهاض ذويها . . ! !

وهو لا يستبقى أناته وحلمه وسعة صدره وتسامحه ، داخل إطار ذاته – كخلق شخصى له فحسب . . بل يحولها إلى فلسفة للحكم ومنهاج .

ولطالما كان يوصى كل وال من ولاته بهذه الوصية :

« إذا قدرتَ على دواء تِشفى به صاحبك

دون الكيِّ فلا تكوِيَنَّه أبداً . . ! ! »

ولقد كان من حق حكام الأقاليم قبل عهده أن يُنفذوا حكم القتل فيمن يشاءون عدلاً ، أو ظلماً . .

فلما وَلِى ، حرمَهم هذا الحق ، وأصدر أمره ألا ينفذ حكم القتل فى أحد ، حتى يطلع بنفسه على قضيته ، ويرى فيها رأيه . .

وراح يتجنب كل عنف وقسوة قائلاً :

« والله لا أصلح الناس بهلاك دينى » ! !

* * *

على أن رِفقه وأناته اللذين وسعا أمته جميعاً ، لم يكونا مطمعاً يُغرى باستضعافه أو مخادعته ، فقد كان هناك الحزم اليقظ لكل من تُسوِّل له نفسه عبثاً ، أو فتنة . . ! !

ولقد كانت فضائله كلها مهيأة على الدوام لحماية مواقعها وأداء دورها . .

فلا يجىء موقف يتطلب الرحمة ؛ فيجدها غافية . . ولا موقف يتطلب الحزم ؛ فيجده كَلِيلا . . ! !

ولقد نراه مع عامّة الناس ينتفض كالعصفور تواضعاً وحناناً ورحمة . .

ثم نراه مع الجبارين أسداً يزأر . . وجَلَالاً يُهاب . . ! !

بعد أن يئس الأمراء الأمويون من استرداد إقطاعاتهم وثرواتهم بالضراعة والحيلة ، أغرَوْا واحداً منهم وهو– عمر بن الوليد بن عبد الملك – بالكتابة إليه مهدداً متوعداً . . فكتب يقول :

« أما بعد ، فقد أزْريتَ بمن كان قبلك من الخلفاء ، وسرتَ بغير سيرتهم ، فقطعت ما أمر الله به أن يُوصل وعملتَ بغير

الحق فى قرابتك . وعمدت إلى أموال قريش ومواريثهم وحقوقهم فأدخلتها بيت مالك ظلماً وجَوْراً وعدواناً .

« فاتق الله يابن عبد العزيز ، فإنك تُوشِك ألا تطمئن على مِنبرك ». . . ! !

وفى اللحظة التى يفرغ الخليفة فيها من قراءة هذا الخطاب المتسم بالسفه والطيش ، يتقدم خُلُق الحزم الصارم ليؤدى دوره تجاه الباطل الذى يتوعد الحق باسترداد سلطانه وبُهتانه . . ! !

ويكتب أمير المؤمنين ردَّه :

« من عمر أمير المؤمنين ، إلى ابن الوَليد . .

« سلام على من اتبع الهدى . .

أما بعد ، فعهدى بك أنك كنت جباراً شقيًّا ، والآن تكتب إلىّ تهمنى بالظلم ، لأننى حرمتك وأهل بيتك من مال المسلمين ماهو حق للضعيف والمسكين وابن السبيل . . ! !

« ألا إن شئت أخبرتك بمن هو أظلم منى وأترك لعهد الله . . ! !

إنه أبوك الوليد ، الذى حين كان خليفة للمسلمين استعملك عليهم صبيًّا سفيهاً تحكم فى دمائهم وأموالهم . . ! !

« فويل لك ، وويل لأبيك – ما أكثر طُلّا بكما وخُصَماءكما يوم القيامة . .

« وأظلم منى وأتركُ لعهد الله . من استعمل الحجاج بن يوسف . يسفك الدم الحرام .

« وأظلم منى وأترك لعهد الله ، من استعمل يزيد بن أبى مسلم على جميع المغرب . يَجْبى المال الحرام . . ويسفك الدم الحرام . .

« ألا رُوَيْدَكَ يابن الوليــد . فلو طالت بى حياة لأتفرغَنّ لك ولأهل بيتك حتى أقيمكم على المحجَّة البيضاء . .! ! ! »

لنضع خطابه السابق إلى « فرتونة السوداء » تجاه خطابه هذا إلى ذلك الأمير الأموى المتجبر ؛ لنرى فى غير تعليق كيف كانت تعمل فضائل هذا الإنسان الباهر الجليل . . ! !

إن الرجل الذى يجلس للناس على الأرض وهو خليفة . .

الإنسان ، الوديع ، العذْب ، يتحول إلى إعصار مُدْمدِم أمام جبروت الباطل أنّى يكون . . ! !

ومثل هذا الموقف من الأمراء المتمردين . موقفه من امبراطور الروم . .

لقد أُخبر أن أحد جنود الجيش الذى كان يحاصر القسطنطينية وكان مقاتلاً شديد البأس ، قد وقع أسيراً فى أيدى الرومان . وحُمل إلى الامبراطور الذى حاول إكراهه على الخروج من دينه الإسلام ورفض الأسير . . فأمر الإمبراطور أن تُسْمَل عيناه . .

بلغ النبأ — أمير المؤمنين — فهبَّ حزمه الشديد ليعالج الموقف .

وحمل قلمه وكتب إلى ملك الروم :

« أما بعد . .

« فقد بلغنى ماصنعت بأسيرك فلان . .

« وإنى أقسم بالله . لئن لم تُرسله إلىّ من فورك لأبعثن إليك من الجند مايَكون أولهم عندك وآخرهم عندى » . ! !

ويعود الأسير إلى وطنه وأهله . . ! !

* * *

وهو ذو يقظة شاملة ، لاتتجلىّ فى الإنجاز وحده – بل فى رؤية القضايا ، وإدراك الكليات والتفاصيل . .

ولو تتبعنا كتبه إلى ولاته لوجدنا من آيات يقظته وشمول نظرته وفطنته مايبهر الألباب .

فلنقنع ببعض فقرات من تلك الكتب :

* « اتبعوا ماأحل الله وحرِّموا ماحرم واعترِفوا بحقه تعالى ، واحكمو بما أنزل . .
* « افتحوا للمسلمين باب الهجرة . .
* « دعوا الناس يتجروا بأموالهم فى البر والبحر ، لاتحولوا بين عباد الله ومعايشهم . .
* « أبيحوا أرض الحِمَى للمسلمين عامة ، وليكن حق الأمير فيها كحق واحد منهم . .
* « الخمر باب الخطايا ، فحرموا كل مسكر . .
* « كافحوا التطفيف فى المكيال والبَخْس فى الميزان . .
* « لاتتَّجروا وأنتم وُلاة ، فإن الأمير إذا اشتغل بالتجارة استأثَر ، وأصاب ظلماً ، وإن حرص ألاّ يفعل . .
* « لاتأخذوا من أموال الناس إلا الحق الذى شرعه الله ، وما عدا ذلك فضعوه كله – لاأفرق بين مسلم وأهل كتاب . .
* « ضعوا السُّخرة عن الناس ، وليكن لكل عمل أجرهُ . .
* « ردوا المزارع لما خُلِقت له ، فإنما جُعلت لأرزاق المسلمين كافَة . .

* « لاتتخذوا على أبوابكم حُجّاباً يمنعون ذوى الحاجات والمظلومين . .

* « اقمعوا صوت العصبية والقبلية ولا تدَعوا الناس يقول أحدهم ، أنا مُضَرِىّ ، ويقول الآخر : أنا يمنى فالمؤمنون إخوة . .

* « الخيل عُدة الجهاد ، فلا تدعوها تركض فى غير حق . .

* « امنعوا النساء أن ينشرن شعورهن ويخرجن نائحات وراء الموتى . .

* « قاتلوا هواكم ، كما تقاتلون أعداءكم . .

* « سدِّدوا المخالفين ، وبصِّروهم ، وارفُقوا بهم ، وعلموهم ، فإن اهتدوا كانت نعمة من الله وفضلا . . وإن أبوا فتَحرَّوا الحق فيما تُنزلون بهم من عقاب . .

* « أكثروا من دعاء الله بالعافية لأنفسكم ولمن ولّاكم الله أمره ؛ فإن لكم فى إصلاحهم أكثر مما لهم . ، وعليكم من فسادهم أكثر مما عليهم . .

* « تعاهدوا حُجَّابكم ورؤساء حرسكم وشُرَطِكم والعاملين معكم ، وأكثروا المسألة عنهم حتى تستيقنوا أنهم لايرتكبون غَشْماً ولا ظلماً . .

* « لا يأخذنكم الزهو بنظر الناس إليكم ؛ ولابحديثهم عنكم . وضعوا أعينكم على الذى هو أبرُّ وأتقى وأخلصوا لله رب العالمين . .

* « اتركوا أعمالكم عند حضور الصلاة ؛ فإن من أضاع الصلاة كان لما سواها أضيع . .

* « تحرَّوُا الحق ؛ ثم اعملوا به بالغاً مّا بلَغ بى وبكم . . حتى وإن ذهب بحياتنا وبمهج أنفسنا . . » ! ! . .

هذا نموذج من أوامره وتوجيهاته يكشف عن يقظة شاملة لتفكيره ومشاعره وإرادته .

يقظة تعطى الجزئيات الاهتمام نفسه الذى تعطيه الكليات ! !

وبهذا المنهج الذى يستمد من قداسته ، وفطنته ، وعزمه ، قَطع ابن عبد العزيز طريقه وَثْباً ؛ متخذاً من الإنجاز وسرعة الحركة طابعاً لمسيرته المباركة . .

لقد كانت مسئوليته عن كل شيء واضحة وضوح الشمس ومشكلات الدولة والأمة لاتنتظر من يكشف عنها أو يفلسفها ، بل تنتظر من يواجهها بذمة وصدق وحسم ، ففيم إذن يكون تَلفُّت أو انتظار . . ؟ !

ومن هنا انطلق يُنجز ؛ وينجز ، وينجز . . مُعطياً كل مسئول مسئوليته ، آمراً إياه أن يمضى بها فى شجاعة وحكمة وأمانة .

أجل ، لقد كان يَنهى ولاته عن أن يكونوا إمَّعات أو متواكلين ؛ هيَّابين . .

وإنه لَيرضَى أعظم الرضا عن ولاته حين يراهم مُقبلين على مسئولياتهم فى شجاعة ، مُنجزين إياها فى حزم ؛ مُيمِّمين وجوههم وأفئدتهم صوب الحق وحده ؛ لايعدلون به أحداً حتى الخليفة نفسه . .

« إذا أرسلتُ إليكم أمراً يخالف الحق ، .

« فاضربوا به الأرض . .

« واستمسكوا بالحق وحده » ! ! !

وكان يعينهم على قهر التخوف من المسئولية بمنحهم قدراً كبيراً من اللامركزية ، والاستقلال . .

أرسل يوماً إلى أحد ولاته أمراً ، فأرسل الوالى يستوضحه ببعض التفصيلات فتجهّم الخليفة وكتب إليه من فوره :

« أما بعد . .

فأراك لو أرسلت إليك : أن اذبح شاة ووزع لحمها على الفقراء ، لأرسلتَ تسألنى : ضأناً أم ماعزاً .؟

« فإن أجبتُك . . أرسلت إلى تسألنى :

كبيرة ، أم صغيرة . ؟

« فإن أجبتك ، أرسلت تسأل : بيضاء . أم سوداء . ؟ ! !

« إذا أرسلتُ إليك بأمر . فتبيَّن وجه الحق فيه . ثم أَمْضِه » . . ! !

إنه لا يريد أن تتلكأ حقوق الناس وتتعثر فى شكليات عقيمة .

إنه يجد نفسه مسئولاً عن كل خطأ ، أو مظلمة تبقى دقيقة من الزمان . . ومن ثم فهو يقطع الأيام وثباً وراء كل خطأ حتى يصلحه ، ووراء كل حق حتى يؤديه لصاحبه . . ! !

وبمثل هذا الحسم والإنجاز . كان يغير كل وال ، أو قاض ، أو أمين أو رئيس شُرطة . أو مسئول . لاتثبت التجربة السريعة الصادقة أنه فى مكانه . . وإذا خُدع فى أحد فظنه للمنصب أهلاً . ثم تبين له أنه غير أهل . لم يُنظِره لحظة تحت تأثير حرج أو مجاملة .

ولقد ملأت يقظته وإنجازه بلاد الدولة إعماراً وحياة ، وفجَّرت طاقات الناس تفجيراً .

وعلى الرغم من أنه كان يرى القدوةَ التى يقدمها للناس جميعاً . تفعل فيهم فعل السحر ، وتجرى من ضمائرهم وسلوكهم مجرى الدم فى العروق ، فإنه مع ذلك لم يغفل عن مراقبة تنفيذ منهجه بنفسه . فتراه يتنقل

فى مواطن كثيرة متخفياً ومتنكراً يسأل ، ويفحص .

ولم تكن فى الحياة بأسرها متعة تشيع فى روحه البهجة والغبطة مثلما يرى أو يسمع أن ظلماً قد دُحض . . وأن عدلا قد نهض . . وأن حقًّا قد رُدَّ لصاحبه فى غير جهد منه ، أو إلحاف . ! !

ركب يوماً فى إحدى جولاته هذه ، مصطحباً معه مولاه « مُزاحِم » حيث خرجا إلى مفارق طرق بعيدة تعبرها قوافل المسافرين . .

وهناك راح وهو متنكر فى ثيابه يسأل الغادِين منهم والرائحين .

ومن بين هؤلاء رجل فى إحدى القوافل ، اقترب منه – عمر – وسأله : كيف تركتَ الناس فى بلدك . . ؟

فقال الرجل : إن شئت جمعتُ لك خبرى ، وإن شئت بَعَّضتُه تبعيضاً . ! !

فابتسم الخليفة ، وقال : بل اجمعه . . أى ، أوْجِزه . .

قال الرجل :

« تركت البلاد ، الظالم بها مقهور . . والمظلوم منصور . . والغنىُّ موفور . . والفقير مجبور» . .

وسارع – عمر – بالانصراف بعيداً عن محدثه قبل أن تشى به انفعالاته ودموع الشكر التى راحت تتحدر من مآقيه . .

وولَّى مسرعاً . مسرعاً . وقلبه الشكور ، ولسانه الذَّكُور يضرعان إلى الله بآيات الحمد والثناء .

والتفت إلى « مزاحم » وقال له :

« والله ، لَأنْ تكون البلاد كلها على ماوصف هذا الرجل ، لأحبّ إلىّ مما طلعت عليه الشمس » . . . ! !

الفصل الثامن

الرّحيل

[. . وإن أَمُت ، فما أنا على صُحبتكم بحريص . .] ! !



ثَقُلَت الدنيا على البطل . . كما ثقُل هو عليها ، فناءت تحت ضغط ورعه الصارم . وعدله الحازم . .

لقد عقد عزمه على أن يحمل مسئولية الحكم بضمير« عمر بن الخطاب » فى زمن مختلف جداً ، بل مُناقضٍ جدًّا لزمن « عمر بن الخطاب » . . . ! !

كان « ابن الخطاب » يحيا فى امتداد عصر الوحى والنبوة ، ومعه أعوان كثيرون على الحق والعدل . .

أما « ابن عبدالعزيز » ، فيحيا فى ميراث مُلْك عضوض وسنواتِ ترفٍ وانحلال وضياع ، وليس معه على الحق أعوان . إلا قلة نادرة تاهت فى الزحام . . ! !

* * *

ولقد نجح فيما عقد عليه عزمه نجاحاً لايُعرف له نظير . . بيد أن هذا النجاح الخارق تمَّ على حساب كل ذَرَّة ؛ بل كل جُزَئ من ذرة فى عافيته وحياته . .

وحين نستعرض « برنامج » يوم من أيام حياته ، لا يأخذنا العجب لقصر مدة خلافته وعمره . بل يأخذنا العجب لأنه بكل . هذا الجهد المميت ، استطاع جسمه أن يتحمل ويقاوم ويستمر فى الحياة – على هذه الصورة – عامين وخمسة أشهر . . ! !

إن الجسد الذى كان – قبل الخلافة – يحيا ، وتترعرع خلاياه على أهنأ مافى الدنيا من غذاء ونعيم ، حُرِم فجأة لحظة استخلاف صاحبه ، لامن ذلك النعيم فحسب ، بل ومن المقومات الأساسية واللازمة لحفظ الحياة . مجرد الحياة . .

ثم هو مع هذا ، لايبذل جهداً متكافئاً مع فاقة صحته ، وضمور جسده . بل يبذل جهد رجل يرى نفسه مسئولا مسئولية مباشرة وكاملة عن كل فرد من مواطنى دولته العريضة المترامية .

ثم هو لا يعيش المشكلات الطاحنة للأمة والدولة وحسب ، بل يعيش فى استغراق رهيب مشكلتَه مع نفسه ، ومع الموت ، ومع المصير غداً بين يدى العلى الكبير . . ! !

فهو – كما قال واصفوه – يرتجف دوماً ويبكى ، وكأنَّ النار لم تُخلَق إلا له . . ! !

يرحمك الله أبا حفص . . ! !

من أى شىء تخاف . . ؟

ولمن جنات الله ، وخُلدُه . . ؟

ولمن رضوانه ، ومجده . . ؟ إذا لمْ تذهب أنت منه بالنصيب الأوفى . . ؟

لكنها – يابن عبد العزيز – شِيمَةُ الذين يَقْدُرون الله حَقَّ قَدْره . .

أجل . . . فما كان للقديس ذنب يخافه ، ولاتفريط يُحاذِره .
إنما هو جلال الله ؛ تجلَّى منه فى روحه وَمْضة ، فجعلته دَكًّا . وخَرَّ منها صَعِقاً . . ! !

* * *

لقد عاش فترة خلافته — تسعة وعشرين شهراً . . وكأنها تسعة وعشرون قرناً . ! !

وفى كل دقيقة ، كانت روحه وأعصابه وعافيته تُعطى جُهد عام . .

إن التغيير الهائل الذى أراده للدولة وللأمة ؛ كان يتطلب لوسارت ريحه رُخاءً جيلاً أو جيلين ، فأبىَ إلا إتمامه فى الأيام الباقية له على الأرض ، وبين الناس . .

وأى تغيير كان ؟ . .

إنه تغيير لايتطلب خليفة واحداً . بل عشرات من الخلفاء ، يحمل كل منهم روح رسول . . !

إنه يريد أن ينقل إلى دنيا الترف والفساد والردّة ، عصر الوحى والنبوة . . ثم هو لايريد أن ينقله إلى نظام الدولة والمجتمع وحسب . . بل إلى أفئدة الناس ، وضمائرهم ، وسلوكهم . . ! !

* * *

من هذه الصورة السريعة ، نلمح الأعباء الخارقة المهلكة التى حملتها روحه وجسده فى تَفانٍ رهبانى ، واستبسال عظيم . .

إن بعضاً منها يكفى لتصديع الجبال . .

فكيف بها مجتمعة . . ؟

ثم كيف بها إذا اخترقت طريقها الأرْزاء . . ؟

أجل ، فبينما الفدائى العظيم ماضٍ فى طريقه ، إذا به يفقد أحب الناس إليه ، وأحْناهم عليه ، وأوفاهم له ، وأبرهم به . .

* أخوه « سهل » . .
* وابنه « عبدالملك » . .
* ومولاه « مُزاحم » . .

رحلوا عنه تِباعاً . . وتركوا مكانهم حوله شاغراً ، إلا من الذكرى التى تثير الألم والشجَن . . ! !

إنه لم يفقد فيهم – رضى الله عنهم أجمعين – الأخ ، والابن ، والرفَيق . . بل فقد فيهم أعوانه على الحق ، والنماذج الصحيحة لفضائل عصر الوحى الذى شَغَفَه حبًّا وإجلالاً . .

ولقد راح يُحس أن ذهابهم ، إرهاصٌ بقرب ذهابه . . ،وأن رحيلهم ، أَذانٌ بقرب رحيله . .

أفلا يهدأ إذن ويستريح ؟ ؟

لا ، بل راح يضاعف الجهد ، لينجز العمل قبل أن يرفع مَراسِيَهُ ويُبْحِرِ . . ! !

راح يتفوق على ماعهد البشر من طاقة ومقدرة ، وقد تملكته الرغبة فى استشهاد نبيل . . ! !

لم يعد يُؤَرّقه ولا يعنيه ، سوى أن يجىء حينه ، ويده القوية الأمينة ممسكة براية الله عزيزة ظافرة ، يقول لربه حين يلقاه :

« رَبِّ ، هذه رايتك لَم أُسلِمْها . »

« ووديعتُك ، لم أَخُنها » ! ! . . . »

* * *

وبينما هو فى عَنائه : وعظمة جهاده وبلائه ، كانت هناك مؤامرة تُحاك ، وجريمة تُدبَّر . .

فبينما مرت الشهور التسعة والعشرون على الجموع كأنها حلم سعيد . . كانت كل دقيقة منها كابوساً خانقاً مرهقاً للأمراء والسادة ، وذوى الامتيازات الظالمة التى داستها أقدام موكب الحق الذى قاده أبو الشعب ، وأمير المؤمنين . . ! !

هنالك ائتمروا به . .

وكما تُحدث بعض كتب التاريخ ، دَسُّوا له السم فى الطعام . . ! !

على أن قوة روحه لم تخذله أبداً . . فراح يسابق المنية فى إنجاز مايستطيع إنجازه ، ويقول :

« إن لله شرائعَ وسنناً ، إنْ أعِش أعلمكموها وأحملكم عليها . .

« وإن أمت ، فما أنا على صحبتكم بحريص . . ! ! »

أجل . . إنه لا يربطه بالحياة الدنيا إلا الرسالة التى حملها فى عنفوان وتُقى . . وأعطاها حياته فى إخلاص وتَبتُّل . . ! !

لكن الآخرة ، سرعان ماتُرسل إرهاصها وبشائرها فى صورة شوق عارم يأخذ إلى الله قلبه وروحه .

لقد تأججت أشواقه إلى لقاء الله ، وتركزت فى قرب هذا اللقاء كل أمنياته وضَراعاته . وصار دعاؤه المفضل :

« اللهم اقبضنى إليك غير مُضَيِّع ولا مُفَرِّط » .

بل إنه ليرسل فى طلب« عبدالله بن أبى زكريا » وكان شيخاً عابداً صالحاً ، معروفاً بأنه مستجاب الدعاء . .

وحين يأتيه يسأله فى إلحاح أن يدعو الله له كى يُعجِّل بلقائه . . ! !

إلى هذا المدى ، راحت أشواقه تدفع زورق حياته إلى المرفأ السعيد . .

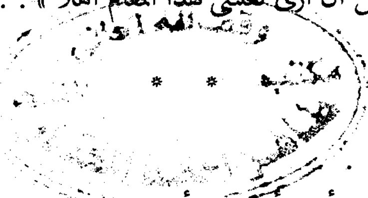
وأمر أن تُشترى له قطعة أرض بدير سمعان ، تكون لجسده مَثْوًى وقبراً . .

وإذ كان يأمر بشرائها ، قال له بعض أصفيائه .

« لو ذهبت إلى المدينة ، فإن أدركك الموت بها دفنت مع رسول الله ، وصاحبيه . . »

فإذا هو ينتفض كالطلقة المقذوفة ، ويقول :

« والله لأَنْ يُعذبنى الله بكل عذاب دون النار ؛ فإنى لاصبرَلى عليها ، لأحبّ إلى من أن أرى نفسى لهذا المقام أهلا » . . . ! !



* * *

واشتد به المرض . .

وتحولت الملايين من أبناء أمته إلى أطفال ؛ يوشك اليُتْم أن يَحيق بهم حين يفقدون أباهم .

الجياع ، الذين شبعوا . .

والعُراة ، الذين اكتسَوْا . .

والخائفون ، الذين أَمِنُوا . .

والمستضعَفون ، الذين سادوا . .

واليتامى ، الذين وجدوا فيه أباهم . .

والأيامى ، اللائى وجدن فيه عائلهن وأخاهن . .

والضائعون ، الذين وجدوا فيه مَلاذهم . .

والتائهون ، الذين وجدوا فيه دليلَهم . .

كل هؤلاء ، وأولئك . . كل الناس فى شعبه وأمته سحقتهم أنباء مرضه الداهم . . .

بل خارجَ أمته ، فى الدنيا التى حوله ، والتى كانت سيرته تفوح فيها كالعبير ، تولاَّها الجزع والذهول . .

حتى امبراطور الروم ، العدو اللَّدود لدولة العرب والإسلام . يرسل كبير أساقفته ، وكان بالطب خبيراً ، ويرجوه أن يصنع المستحيل لإنقاذ حياة الجار الطيِّب والخليفة العادل ، والقديس الجليل . .

لكن القديس الجليل رفض كل علاج وكل طب وكل دواء وراح مع أشواقه ، ينتظران لحظة النداء . . ! !

* * *

هاهو ذا ؛ راقد فى داره المتواضعة ، فوق حصيره المعهود . .ويدخل عليه ابن عمه « مسلمة بن عبد الملك » فيقول له :

« يا أمير المؤمنين . ألا تُوصِى لأولادك ، فإنهم كثير ون وقد أفقرتهم ، ولم تترك لهم شيئاً » . . ؟ !

ويجيبه عمر « وهل أملك شيئاً أُوصِى لهم به ؟ أم تأمرنى أن أعطيهم من مال المسلمين ؟ والله لا أعطيهم حق أحد . .

« وهم بين حالين : إما أن يكونوا صالحين ، فالله يتولاهم . . وإما غير صالحين ، فلا أدَعُ لهم مايستعينون به على معصية الله . . ؟ ! »

وأمَره أن يدعو أولاده ، فجاءوا مسرعين . . اثنى عشر ولداً وبنتاً ،

شُعْثا غُبراً ، قد زايَلَتْ جسومَهم الشاحبَة نضرةُ النعيم ! !

وجلسوا يحيطون به ، وراح يعانقهم بنظراته الحانية الآسية . . ويتحسس بيمينه ثيابهم البالية . . ويغالبُ دموعه ، فتغلبه فيواريها وراء كلماته التى راح يودع بها أبناءه وأحبائه

« يابنىّ . .

« إن أباكم خيِّر بين أمرين

أن تستغنوا ، ويدخل النار

أو تفتقروا ، ويدخل الجنة .

« فاختار الجنة . .

« وآثر أن يترككم لله الذى نزَّل الكتاب ؛ وهو يتولى الصالحين » . !

ثم بَرِق بَصره والتمع مُحيّاه ، وصوَّب حَدقتيه تجاه الباب فى اهتمام خَفِىّ ، كأنما أبصر ضيوفاً أعِزَّاء . .

ثم ابتسم لأبنائه ، ولأمهم العظيمة وزوجته الوفية ، وأذِن لهم بالانصراف . .

وبينما هم منصرفون عنه ؛ كان يحرك كفيه ويشير بهما إشارة من يُحيِّي ضُيوفاً قادمين . . ! !

أجل ، لقد كانت بَعثَةُ شَرفٍ من الملائكة المقربين ، جاءت تصحب القديس إلى حفل تتويجه المعدِّ له هناك . . فى جنات الخلد وفردوس الله . . ! !

وسمعه الذين وقفوا خارج حجرته يردد الآية الكريمة :

« تلك الدار الآخرة ، نجعلُها للذين لايريدون

عُلُوًّا فى الأرض ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين »

وجاء مستشاره العظيم وصديقه الحميم « رجاء بن حَيْوة » يسعى . .

وألقى بنفسه إلى جواره ، وهمس فى سمعه

= كيف تجدك ، يا أمير المؤمنين . . ؟

لكن أمير المؤمنين يسترسل فى تلاوة الآية الجليلة الكريمة :

« . . لا يريدون عُلُوًّا فى الأرض ، ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين » . .

* * *

وفجأة . . مال رأسه الذى طالما أثقلته هموم أمته إلى وراء . .

مَالَ ، ليستقر فوق وسادة ، حَشْوُها لِيف . . ! !

وأغمضَتْ عيناه اللتان لم تُغمِضا قط عن حقٍّ لله . . ولا عن حقٍّ للناس . . ! !

وعاد المسافر إلى وطنه . . وآبَ إلى داره . . .

مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين ، والصدِّيقين ، والشُّهداء ، والصالحين . .

وحَسُنَ أولئك رفيقاً ! !



رقم الإيداع		١٩٩٦/٤٠٨٤
الترقيم الدولى	977-02-5256-5	ISBN

١ / ٩٦ / ١٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)